يوميّات هرّ

إملي
نصرالله

نوفل

املي نصرالله

يوميّات هِرّ

رواية

نوفل

جميع الحقوق محفوظة.

صدر عام 2006 عن نوفل، دمغة الناشر هاشيت أنطوان
الطبعة السابعة، 2018

© هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2013
المكلّس، بناية أنطوان
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine instagram.com/HachetteAntoine twitter.com/NaufalBooks

لا يجوز نسخ أو استعمال أيّ جزء من هذا الكتاب في أيّ شكل من الأشكال أو بأيّ وسيلة من الوسائل – سواء التصويرية أو الإلكترونية أو الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات أو استرجاعها – من دون الحصول على إذن خطّي مسبق من الناشر.

الرسوم الأصليّة: مها نصرالله قيس
تنقيح الرسوم: دانيال قطّار
رسم الغلاف: حاتم علي
تصميم الغلاف: معجون

ر.د.م.ك. (النسخة الورقية): 978-614-438-372-8
ر.د.م.ك. (النسخة الإلكترونية): 978-9953-26-634-3

إلى منى ...

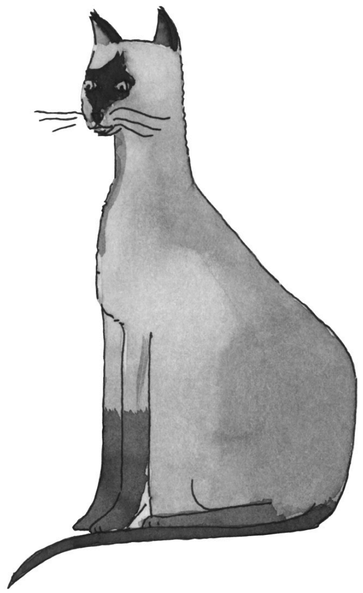

تمهيد

كُتب الكثيرُ عن بيروت في زمنِ الحرب. وكانتِ الكتابةُ، في مُعظمِها، عن الكبار، وللكبار. وكانت عن الناس.

أمّا سائرُ المخلوقاتِ المقيمة في المدينة، فقلّما ذُكِرَت.

بَلى: كَتَبَتِ الصُّحفُ عن ظاهرةِ القِطَطِ والكِلاب الشاردةِ في زمنِ الحرب. ولكن، ماذا عن تلك المخلوقاتِ اللطيفة، الأليفة؟ وكيف عاشَت؟... وماذا جرى للعلاقةِ المميَّزةِ التي تقومُ بين طفلٍ، وحيوانٍ بيتيّ؟...

إنّ هذه الرِّوايةَ تُحاولُ الإجابة عن بعض تلك الأسئلة، كما أنّها مُستَوحاةٌ من حقيقةٍ وواقع، حتّى أنّي لم أجِدْ ضرورةً في استعارةِ الأسماء: فزيكو شخصيّة حقيقيّة، كذلك صديقته، منى؛ ومن خلال هذه الصداقة اللطيفة، نرافقهما، خطوةً خطوة، وهما ينتقلان من زمن السلام والأيّام الحلوة، إلى آلام الحربِ وويلاتها.

يقولُ بعضُهم: أيّامُ الحربِ يجبُ أن تُمحى من الذاكرة، وتُطوى صفحتُها نهائيًّا. هذا رأيٌ. أمّا أنا، فأقول: يجبُ أن نتذكَّرَ، لنعتبرَ، وربّما، ليكونَ الماضي أُمثولةً لأجيالِ الغد.

ا.ن.

إسمي زيكو

إسمٌ اختارتْهُ لي صديقتي منى. لماذا؟... لستُ أدري. ربّما لتَحصُرَني فيه. هكذا يَفعَلُ الناس، يختارون لأولادِهم أسماءَ يُطلِقونَها علَيهِم. وهكذا فَعَلت منى؛ اختارت لي اسمًا.

قَبْلَ ذلك لم يَكُنْ لي اسم. وُلِدْتُ لأبوَيْن أُعطِيهما اسمَين: أبو شاكر أبي. وميني أمّي. كلٌّ واحدٍ منهما مُتَحَدِّرٌ من سُلالةِ القِططِ السِّيامِيَّةِ الأصيلة. أبي يَتَمَيّزُ بلونِهِ الأسودِ اللمَّاع، وجِسمِهِ الضَّخم، ونَظَراتِهِ المُتَعالِيَة.

سَمِعْتُ السيّدةَ لمياء، ربَّةَ العائِلَةِ التي تَحْضُنُنا, تقولُ إنَّ لأبي طبعًا شرسًا. كانت تُخْبِرُ صَديقاتِها وتُكرِّرُ الحِكاية، ولا تَعلمُ بأنّي أَفْهَمُ كلامَها، ولو أُعطِيَ لي النُّطقُ لدافَعتُ عن أبي، وأخبرتُها بأنّه يكونُ شَرِسًا في الخارج، كَي يُدافِعَ عن نفسِه. لكنَّهُ مِثالُ اللُّطفِ والدَّماثَةِ حينَ يكونُ مَعَنا. ويَزْدادُ لُطفًا حين يَقْتَرِبُ من أمّي الهادئة، الجميلة، ميني، بلَوْنِها الرمليِّ الناعم، وعَيْنَيها الزَّرقاوَينِ الطيِّبتَينِ، والخَتْمِ الأسودِ المميَّزِ في طَرَفِ ذَنَبِها وأُذُنَيها. وأمّي تَلفِتُ الأنظارَ بحرَكاتِها الأنيقةِ الرشيقة، ومَشْيَتِها المُتَأنِّية. وقد وَرِثْتُ عنها اللَّون، وبعضَ الطِّباع.

ياهْ! كَمْ أُحبُّكِ يا أمّي ميني!

***

كُنْتُ أَقْفِزُ حولَها، أُمَرِّغُ وجهي بفَرْوَتِها الناعمَة، وأُصْغي بفرحٍ إلى «غَرْغَرةِ» صوتِها العذب. وكانت أختي، ليبي، تنامُ براحةٍ بين قدَمَيْها. وكُنّا جميعًا نَنْتَظِرُ

رُجوعَ أبي، ونَنْعَمُ بالهدوءِ المُخَيِّمِ على زاوية الغرفةِ الشماليةِ المخصَّصةِ لنا وللفَرْشِ القديم.

كانت أمّي تُغَنِّي، كي تُسلِّينا، حين شُقَّ البابُ، بهدوءٍ، ودَخَلَ أبي. لم يُطْلِقْ مُواءَهُ، مثلما عَوَّدَنا لدى عودتِهِ من الخارج. اجتازَ العَتَبَة، ومشى إلى أقصى زاوية في الغرفة، ونام. لم نُلاحِظْ أمرًا غيرَ عاديٍّ في سلوكِه، وحَسَبْنا أنَّه حانَ وقتُ نَومِنا، نحنُ أيضًا. ثمَّ فُتِحَ البابُ من جديد، ودَخَلت الستّ لميا. فأشعَلتِ النور، وهي تُطلِقُ صَرَخاتِ التَّأنيبِ:

– وَيْحَكَ، يا أبو شاكر... وِلَكْ يا مَقْصوفْ العُمُر، ما رَحْ تْغَيِّر عاداتِك؟..

قالتْ ذلك، ثمَّ انْحَنَتْ فوقَ الجسمِ المُمدَّد على السجَّادة، ومدّتْ يدَيها الاثنتَين، تَتَحسّسُ الوَبرَ الناعِمَ بلطف. ثمَّ رَفعَتْ أصابِعَها أمام المِصْباح، وعادتْ إلى التأنيب:

– عَمْ تِتْخانَقْ؟... من جْديد رْجِعْتْ تِتْعارَك وْتِرْجَع مْدَمّى؟... دَمُكْ لوّث أصابعي، وسَال على الأرض. لازم نْطَهِّر الجُرح، يا أبو شاكر. فاتِحْ جَبْهَة على حسابِك؟... متى تِعْقَلْ يا ولد؟...

انتظرتُ لأسمعَ ردّةَ فعلٍ من أبي، صَرْخَةَ احتجاجٍ، «غَرْغَرَةً» يُعَبِّرُ بها عن الألمِ أو الرِّضى؛ أيِّ شُعور. لكنَّه ظلَّ صامتًا.

خَرَجَتِ الستّ لمياء وغابَتْ لحظاتٍ قبل أن تَعودَ، حاملةً سلَّةً فيها لوازمُ الإسعاف: قُطن، شاشْ، كُحول ومُطَهِّرات. تَرَبَّعَتْ على الأرض، واحْتَوَتْ جسمَ أبي المُنْهَكَ بين ذراعَيْها، ثمَّ راحتْ تُطهِّرُ الجُرْحَ، وتَمْسَحُ الدَّمَ السائلَ من القُروحِ القديمة.

كانت أُمّي تتأمَّلُ ما يَجري بنظراتٍ قَلِقَة، وتموءُ بحنان، وهي تَلْحَسُ بلسانِها الورديِّ الناعِمِ وَجْهي وَوَجْهَ أختي.

رحلتي الأولى

أَذْكُرُ تلكَ الليلةَ بِوُضوحٍ إذْ كانَت ليلتي الأخيرةَ مع العائلة.

خَصَّتْني الستّ لمياء في صباح اليوم التالي بفطورٍ لذيذ: فَتَحَتْ عُلبةً فيها كَبِدُ دجاج، وسَكَبَتْ نصفَ مُحتوياتِها في الطبقِ أمامي، وسمِعْتُها تُتَمْتِم: – لازِمْ تأكلْ مليح. قُدّامَك مِشوارْ طويلْ، يا صديقي.

لم أفْهَمْ ماذا كانتْ تَقْصِدُ بكلامِها إلّا بعدما حملَتْني، وراحت تُقَبِّلني وتُدَلِّلني، بأعذبِ الكلام: – رَحْ أفقد لك. لكنْ نَبقى نْطُلّ عليك مرّة كلّ أسبوع. رَحْ تكون عند ناسْ بيحبُّوك كثير...

ثمَّ صَمَتَت، وراحَت تُمَهِّدُ مَرْقَدي الجديد، قَبْلَ أن تَضَعَني فيه: سريرٌ ناعم، صَنَعَتْه بيدَيها من سلّةِ قَصَب، مُبطَّنَةٍ بالقماشِ الناعم، وأَحاطتْهُ بالتيلّا والشرائِطِ الساتان باللونين الأبيض والأزرق.

– مِن لونِ عَينَيك...

قالت. وردَّت بابَ السيارةِ بعدما اطْمأنَّت إلى سُكوني في المقعَدِ الخلفيّ. ثمَّ أدارتِ المُحَرِّكَ وانطلقت في شوارعِ المدينة.

وكانت تلكَ رحلتي الأولى خارجَ البيت.

***

الستّ لمياء لطيفة. لكنّها لا تَفْهَمُ لغتي. لذلك لم تسمعْ أسئلتي العديدة، ونحنُ مُنطلِقانِ في الشوارعِ العريضة، المُزدَحمةِ بالضجيجِ والبَشرِ والعَرَبات:

– مياو...؟ مياو...؟

كُنتُ أسألُها:

– إلى أين تَحْمِلينَني؟ وما هذا الضجيجُ الذي نَسمَعُه؟ ولماذا تَتَوقَّفين وتنْتَظرين كُلّما سَمِعْتِ صفّارةً أو عندما يَلْمَعُ في عينيَّ ذلك النّورُ الأحمرُ من أعلى العمودِ القائمِ إلى جانبِ الشارع؟ وهل سنعودُ إلى البيت؟

أسئلةٌ، كانتْ تَتشابكُ في الفَضاء، وتَتماوجُ بيْنَنا، وهيَ لا تَسْمَعُها.

ازدادَ الضجيجُ عندما ضَغَطَت أَحَدَ الأزرارِ الكَثيرةِ أمامَها وقالت: – نَسْتَمعُ معًا إلى الراديو.

وانسابَتِ الموسيقى، ناعِمَةً عَذْبَة، حَجَبَت عنّي الضجَّةَ الخارِجيَّة، وراحَت تَرْسُمُ أمامي صوَرًا جميلةً ملوَّنةً لم يَسبِقْ لي أن رَأيتُها منذُ أنْ فَتَحْتُ عَيْنَيّ على النّور.

منى، صديقتي

– صديقتُك، مُنى.

قالتِ الستّ لمياء ذلك، وَنَحْنُ نَخْطو عَتَبَةَ المكانِ الجديد. ثُمَّ وضَعَتِ السلَّةَ – السرير – بين يدَي الفتاةِ الصغيرة...

صديقَتي منى.

هذا إذن، ما يَنْتَظِرُني. وهذه هي المُفاجأة.

كُنْتُ منشغلًا بِتأمُّلِ وجهِ منى، والصوَرِ المُعَلَّقَةِ حولَها، فوقَ جُدرانِ الغُرفة، فلَم أُلاحظْ غِيابَ الستّ لمياء، ولم أُفكِّرْ بأهلي طوالَ فترةِ النهار. لكِنْ، ما إن حلّ المساءُ، وهَبَطَ الظلامُ من حولي، وهَدَأَتِ الضجَّةُ في الخارج، حتّى انتابَتْني تلك المشاعِرُ المُخيفَة، وأَحْسَسْتُ وكأنّني سقَطْتُ في هُوَّةٍ عَميقةٍ، ومَعْزولةٍ، وصرَخْت: – مياو... مياو... أُريدُ أمّي، أريد أبي وأختي. مياوو...

رَبَّتتِ اليَدُ اللَّطيفةُ رأسي. ثمَّ حَمَلتْني صاحِبتُها وقرَّبَتْني مِن صدْرِها وراحت تَهمِسُ بحنان: – لا... لا تبكِ يا زيكو. أنا أُمُّكَ بعدَ اليوم. أُحبُّكَ كثيرًا يا زيكو.

– زيكو؟... أنا زيكو؟...

لم يكنْ سهلًا أن أحْفَظَ الاسمَ الغريبَ على لغتي المعتادة. لكنَّ لُطْفَ منى وحَنانَها، جَعَلاه اسمًا مُحَبَّبًا لَدَيّ.

وهكذا وُلِدْتُ من جديدٍ بِاسْمِ زيكو.

***

قالت منى، وهي تقبِّلُني قبلَ أن تُعيدَني إلى سريري: – عندي شُغْل، يا زيكو. إبقَ هنا، حتّى أَنْتَهي.

رون... رون... رون...

ابتسمَتْ منى. إنَّها تَفْهَمُ لُغَتي، وأنا أفهمُها: – رون... رون... مياوو...

اغتنمتُ فُرصَةَ خُروجِها مِنَ الغُرفة، ونِمْت.

أَتعبَني الانتقال. أَتعبَتْني رِحلَتي الطويلةُ في السيَّارة، والضجيجُ، ثمَّ ذلك الشعورُ الذي يُعاوِدُني من وقتٍ لآخر، وعندما أَتذكَّرُ بُعْدي عن أُمّي وأَبي وأُختي. تُرى، هل أراهم بعدَ اليوم؟

– نعم، يا بُنَيّ. أنا باقِيَةٌ مَعَك، ولا تَغيبُ عنّي مَهْما بَعُدَتِ المسافة، يا حبيبي.

كان الصَّوتُ اللطيفُ يُدَغْدِغُ أحلامي، ويُغرِقُني في نومٍ عميقٍ ومُريح. صوتُ أمّي. وَجهُها يُقْبِلُ عَلَيَّ، هادئًا، راضيًا. ثمَّ أبصرتُها تُديرُ وَجْهَها عنّي وتَنظُرُ إلى البَعيد، حَيثُ جَلَسَ أبي، فوقَ كَنبةٍ عتيقة في رُكنِ الغُرفةِ وبقُربِهِ جَلَسَت أختي.

كان نورٌ خافِتٌ يَتَسلّلُ عَبْرَ النافذةِ معَ زَقْزَقَةِ العصافيرِ وهَديرِ العَرَبات. وعَرَفْتُ أنّهم بخير. أهلي جَميعُهُم بِخير.

فَتحْتُ عَيْنَيَّ كَي أُتابعَ الحِوارَ مَعَهُم، فَوَجَدْتُني وحيدًا في الغُرفةِ الجديدةِ، غُرفَةِ منى. وأدركتُ أنّي كُنتُ أحلم. أمّي تَزورُني بصُحْبَةِ أبي وأختي في الحُلم. وأعودُ من صُحبَتِهِم بذلكَ الشُّعورِ المُريح.

بَعدَ ذلكَ اليوم، صرتُ أُغْمِضُ عينيَّ كُلَّما اشتَقْتُ إلَيهم، وأَستسلِمُ للنَّومِ والأحلام.

أُسرَتي الجديدة

– سوفَ أُعَرِّفُكَ إلى عائلتي، يا زيكو. قالتْ منى ذلك، ثمَّ حَمَلَتْني بَيْنَ ذِراعَيها وغادَرَتِ الغُرفة.

عائلتُها؟...

– نعم. هذه أمّي، يا زيكو. يعني هي جدَّتُكَ، وهذا أبي، وهو بعد اليوم، جدُّك. وهؤلاء إخوَتي، وغدًا أُقدِّمُكَ إلى أصدِقائي. سوفَ تَفْرَحُ مَعَنا، يا زيكو اللطيف.

– مياو...

– مَهْضوم... إنَّه ألْطفُ قطٍّ رأيناه... ناعِمٌ وحُلْو... صوتُه عَذْب. انتبهي له، يا منى.

أفرادُ العائلة، جَميعُهم، مُهْتَمُّون بي. ويُوصُونَ منى كيف يجبُ أن تُعامِلَني. حَمَلَتْني، وعادَت بي إلى غرفتِها:

– تَبقى هنا، يا زيكو. الصالون بارِد. والضجيجُ هناك، مُزْعج. هنا، في غُرفَتي تَجِدُ الهدوءَ والراحة. أهلًا بك في غرفتِك، يا زيكو.

***

لعِبْنا سويًّا. ثمَّ انصَرفَت منى إلى كُتُبِها، تقرأُ، وترسُمُ بالألوان. وأنا، أغمضتُ عينَيَّ ونِمتُ. وعندما استيقظتُ، أبصرْتُها جالسةً أمامي، تبتسمُ، وتَرفَعُ بين يدَيها لَوحَة:

– رَسَمتُكَ، يا زيكو... هذا رَسْمُكَ، أُنظُر. هل أحبَبتَ وَجهَك؟... غدًا أُحضِرُ الكاميرا وآخُذُ لكَ عِدّةَ صُوَر، حُلوَة، مثلَك. هل تُحِبُّ التصوير؟

– مياو...

– تقولُ نعم؟... أفهمُ ما تَقولُه لي يا زيكو. وأنت تَفْهَمُني حين أكَلِّمُكَ. سوف نكونُ دائمًا صديقَين.

قالت ذلك، واقتَربَت، فغمرَتني وراحَت تَعصُرُ جسمي حتّى آلَمَتني. لكنّه الألمُ اللذيذُ من يدٍ مُحِبَّة، وصَرَخْتُ:

– مياوو...

فَهِمَتْ، وقالتْ لي مُعْتَذِرة:

– أعْرِف. وَجَّعْتُك يا زيكو... بَسْ أنتَ لطيفٌ، ومَهضوم. أُحِبُّك كثيرًا... كثيرًا.

اخترقَ صَوتُها أَقنِيَةَ مَشاعِري حتّى الأعماق. وكُلّما قَرَّبَتني منها، يَزولُ وَجَعُ فِراقي لأهلي. وبعدَ حينٍ لم أعُد أُبصِرُهُم في أحلامي. وصِرتُ كُلَّما نادَتني، أُحِسُّ بأنَّ صوتَها هو صَوتُ أمّي ميني.

***

أُحِبُ الجلوسَ في هذه الغُرفة، قُرب منى. أتأمَّلُها وهي تقرأُ، أو ترسم. وأُصغي إليها وهي تعزِفُ الموسيقى على آلةٍ كبيرة من خشب، تُسمّيها: بيانو. تجلسُ فوقَ كُرسيٍّ، وتضعُني في حِضْنِها أو تَرفَعُني فوقَ سطحِ البيانو وتقول:

– هكذا، نعزِفُ معًا.

سوفَ تُصبحُ، أنتَ أيضًا، عازفًا على البيانو. ثمَّ تَحمِلُني، وتَروحُ تُمَرِّغُ وَجهَها الناعِمَ فوقَ رأسي وظهري.

وجهُ منى ليس ناعمًا فقط، بل هو جَميل. لونُ بَشَرَتِها أسمر، مُشَرَّبٌ بحُمرةِ العافية. عَيناها بُنِّيَّتان، واسعتان، جَبينُها عريض، أنفُها دقيق، وفَمُها مرسومٌ على شَكل ابتسامة. وشَعرُها الأسودُ يَلمَعُ، فيُضيءُ هالَةَ وجهِها، وكُلَّ ما يُحيط بها. وحين تَحكي، يأتي صوتُها مثلَ زقزقةِ العصافير، وخريرِ الجداولِ وهَمْسِ نَسَماتِ الربيع. سمِعتُها تقرأُ هذه الأوصافَ من كتابِ الأميرةِ النائمة. وكنتُ أُصغي إِلَيها وأَتأمَّلُها. فأُبصِرُ أمامي أميرةَ الأحلام، صاحِيَةً، وساهِرةً على راحتي.

***

حَمَلَتني منى في السرير، وخرجَت:

– هذه شُرفَتي الصَّغيرة، يا زيكو، وهيَ شُرفتُك أيضًا. سوف تَتنزَّه فوقَها ما طابَ لك، وتُطِلُّ منها على الطريق، وتُشاهِدُ البَحْر. هل تَعرِفُ ما هو البحر يا

زيكو؟ تأمَّلْهُ، هناك، أزرق. تتماوجُ مِياهُهُ، وتلمَعُ تحت أشعَّةِ الشمس، ونورِ القمر. فَوقَه ترحلُ أَشرِعَةُ الصيّادين. هذا بحرُ بيروت، يا زيكو. وتِلكَ، حديقةُ الجيران، فيها أشجارٌ كبيرة، عالِيَة: شجرُ الكينا، والجُمَّيْز والزَنْزَلَخْت والدِّفْلى والياسمين. غدًا تَنْزِلُ وتَتَنَزَّهُ في الحديقة، وتشُمُّ عِطرَ الياسمين، يا زيكو.

– مياو...

كنتُ أقولُ لها: لستُ بحاجةٍ إلى الحديقة. يَكفيني أنّي بِصُحبَتِها. وأنّها تَغمُرُني بعاطِفَتِها وحنُوِّها، وبصَوتِها العَذبِ، فَتَمسَحُ خَوفي وتَنزَعُ قَلَقي.

لم تُنزِلِ السريرَ مِن بينِ يَدَيها طوالَ فترةِ وُقوفِنا على الشُّرفة:

– أخافُ عليك. أخشى أن تَسقُطَ من بينِ قُضبانِ الشُّرفة. فأنتَ ما زِلتَ صغيرًا، يا عزيزي زيكو، وغدًا تَكبرُ وتُصبِحُ قويًّا.

وغَمَرَتْ رأسي ثمَّ أضافَت:

– الطقسُ بارِد. إنّك تَرتجِف. لازمْ نَدْخُل الغرفة...

كنتُ أسمعُها وأحفظُ كلماتِها. كلُّ ما تقولُه لي مَفهومٌ، واضحٌ لأنَّ كلامَها صادِرٌ منَ القلبِ المُحِبّ.

الأصدقاء

– هذا صديقي، كريم. تعالَ سلِّمْ عليه يا زيكو...

– مياو...

تَحمِلُني منى، وتقدِّمُني إلى الصبيِّ الأشقَرِ وهي تَقول: – هذا زيكو... هذا كريم.

مدَّ كريمٌ يَدَهُ، وراحَ يتلمَّسُ وجهي، ثمَّ سمعتُه يقول: – ياهْ، شو ناعم!

ابتسمَت منى وقالَت:

– ناعِم، وحُلْو كثير. بس إيّاك أن تَشُدَّه بذَنَبِه... عندَ ذلك لن يبقى ناعمًا أبدًا.

وأكَّدَ لها كريم:

– أعرِفُ... أعرف. لكن انظُري كيفَ سَأُداعِبُه.

وأخرَجَ من جيبِهِ «مْكَبَّ» خيطانٍ وراح يُدَحْرِجُهُ على الأرضِ أمامي.

كان المنظَرُ مُغرِيًا، دفعَني لأَجرِيَ بِحَماسَةٍ، وأدفَعَ «المكبَّ» بعيدًا. وأُلاحِقَه. ثمَّ رَفَعَه عن الأرض، وأبقى خيطًا واحدًا منه مُتدلِّيًا. ورحتُ أُتابع ذلك الخيط، وهو يهرُبُ منّي، وأجري في أثرِه، ومعي تَجري منى، مع كريم، ويَضحكان مرحَين.

لم يَسبِقْ أن غمرَني مثلُ ذلك الشعورِ من قبل. حتّى الطعامُ اللذيذ لم يولِّدْ في نفسي ما يُشبِهُ ذلك الفرح.

وكانت منى فرِحةً، وسمِعتُها تُعَبِّرُ عن ذلك بقولِها: – يايْ، شو بحبَّك يا زيكو المَهْضوم!

وقال كريم:

– كلّنا نُحِبُّ زيكو.

وعَلِمتُ في تلكَ اللحظةِ كَمْ أنا سعيدٌ ومَحظوظٌ بِوُجودي هُنا.

***

في صباحِ اليوم التالي، سبقَتني منى إلى مغادرةِ السريرِ، وحملَتني ووضعَتني قُربَها، على الوِسادَة: – أَخبِرْني، يا زيكو، كيف نِمتَ؟

– مياوو...

– مليح... مليح؟...

– مياو... مياو...

وضَحِكَت منى. وَظَلَّت تضحَكُ وأنا أُجيبُها بلُغَتي: المُواء. ثمَّ مدَدْتُ يدي، لألمِسَ خَدَّها الوَردِيَّ، فابتعَدَت عنّي خائفة: – تَخْمِشُني، يا زيكو، يا أَزْعَر؟

– مياو...

كنتُ أَخبِرُها بأنّي أحبَبْتُ أن أداعِبَها مِثلَما تُداعِبُني، ونتبادَل اللّعب. وحَسِبْتُ منى تفهَمُ حَرَكاتي ولُغَتي. ثمَّ مدَّت يَدَها، وصافَحَت يدي وهي تقول: – مَعَك حَقّ، يا زيكو... ظَلمتُك. لأنَّ الجميع حَذَّروني من «خَراميشك». وأنتَ صغيرٌ ولطيف... ولا يُمكِنُك أن تُؤذِيَني، أَلَيسَ كذلك؟

– مياو...

– آه! تذكَّرتُ، غدًا أُرافِقُكَ لِزيارةِ طبيبك؛ لا تَخَفْ، يَفْحَصُكَ ثمَّ يُعطيك المطْعومَ الواقي، لا أُريدُكَ أن تَمْرَضَ يا زيكو.

في عيادة الطبيب

– هذه عيادةُ الدكتور سامي... هذا زيكو، يا دكتور.

ابتسمَ الدكتور، وهو يَتناولني بين يدَيه:

– إِنَّه لطيفٌ، وجميلٌ، ماذا قلتِ اسمَه؟... زيكو؟

– نعم. افحَصْه يا دكتور. وأريدُ أن يأخُذَ الجرعاتِ الواقية من كلِّ الأمراض.

– لا تخافي. نعملُ اللازم.

لا أدري ما هو اللازم. لكنَّ الطبيبَ راحَ يفحصُ جسدي، عُضوًا، عضوًا، برشاقةٍ ورفق. ثمَّ رَفَعَني فوقَ ميزان، ومن دون أن يُحَذِّرَني، فتَح فمي وقَطَّرَ فيه قطراتٍ غريبةَ الطَعم، ابتلَعتُها مع ريقي. وبعدَها، غرزَ إبرةً في جنبي وهو يُردِّد: – لا تؤاخِذْني، يا زيكو... من أجلِ صِحَّتِك.

– مياووو...

تألَّمْتُ، وتحفَّزتْ مخالبي للدفاعِ عن النفس، لكنَّ الألمَ زالَ بسرعةٍ، وأعادني الطبيب إلى يدَي منى. احتَضَنَتني، وهي تهمسُ في أذني: – الإبرةُ لازمة، يا زيكو. هذا طُعْمٌ لا بدَّ منه لِصِحَّتِك.

ثمَّ غَمَرَتني مُطَمئِنَة، وخَرَجنا إلى حيث كان أبوها في انتظارنا في السيارة.

***

حالَ وصولِنا إلى البيت، سارعَت منى إلى الخزانَةِ، فأخرجَت دفترًا، ووضَعت فيه الورقةَ التي كتبَها الطبيب: – هذا سِجِلُّك الصِحِّي. من اليوم نبدأُ تسجيلَ ما يحدُثُ لك، على هذا الدفتر. مفهوم يا زيكو؟

– مياو...

حين فرغَت من الكتابةِ، أخذَتني إلى المطبخِ وقدَّمَت لي طَبَقَ الطعام: – لأنَّكَ كنتَ عاقلًا، وَسمَحْتَ للطبيبِ بأن يَفحَصَك ويُعطيَكَ المطاعيمَ اللازمة. والآن تستحِقُّ أطيَبَ طعام.

بقيَت واقفة بجانبي حتّى انتهيتُ، فأنزلَتني عن الطاولةِ وهي تقولُ بلطفِها المألوف: – الآن أسمَحُ لكَ بأن تَسْرَحَ في البيتِ لفترة، قبل أن ترجِع إلى بيتك.

لكن، ما كِدْتُ أفرَغُ من تناولِ طعامي، حتَى شعرتُ بتعبٍ شديد، وبرغبةٍ في النوم. فتسَلَّلتُ إلى سريري، بهدوءٍ، واستسلَمتُ للنوم.

النداءُ البعيد

نهضتُ صباحًا على صوتٍ يشبِهُ صوتَ أُختي ليبي آتيًا من الخارج: – ميي... ميي...

قفزتُ من سريري، وحاوَلتُ الخروجَ. لكنَّ البابَ كان مغلقًا، ومنى لا تزال نائمة. اقتربتُ منها ونادَيتُها: – مياو...

تنبَّهَت، ثمَّ جلسَت في فراشها وسألَتني: – ماذا جرى يا زيكو؟... هل هناك ما يُزعِجُك؟

– مياو... مياو...

– تُريدُ أَن تصعَدَ وتَجلِسَ بقربي؟

تعالَ!

– مياوو...

– لا؟... هناك أمرٌ آخر؟...

دَعني أُخَمِّن...

ثمَّ سَمِعَت هي النداءَ وفهمت كلَّ شيء. فاتَّجهَت إلى البابِ وفتحَتهُ وهي تناديني لأتبعَها. في أقلَّ من ثانية، كنتُ قد سَبَقتُها إلى الخروج. تطلَّعتُ من فوقِ الشرفةِ إلى مصدرِ الصوت، فأبصرتُ على الجانبِ الآخر من الشارع، قطَّةً صغيرةً مُرَقَّطةً باللونَين: الأبيض والأسود. كانت تقفزُ وتمرحُ في الشمس ويقفزُ بجوارِها كلبٌ صغير: – هذا هَبَاب...

قالت منى، وتابعَت:

– أنت لا تعرف هباب يا زيكو. إنه كلبُ الجارة، وهو يُحِبُّ اللعبَ مع القِطط، ولا يُؤذيها. ربما لأنَّه صغيرٌ ولطيف.

– مياو؟... مياو؟...

– فَهِمْتَ إذن ما أقوله؟...

– مياووو...؟

كنتُ أسألُها عن القطَّةِ الصغيرةِ. هل تُقيم في الجوار؟

ويبدو أنّها فَهِمَت ورَدَّت عليَّ مُفَسِّرة: – القطَّةُ تُقيم في القَبْوِ الأرضيِّ من البناءِ المقابلِ حيثُ يَسكُن العمُّ ناجي، حارسُ العمارة.

– مياو...

– فهمتَ إذن كلَّ شيء. لكنّي لم أخبرْكَ عن اسم القطَّة. إنَّها زيزي. اسمٌ جميلٌ أليس كذلك؟

– مياوو...

شعرتُ بفرحٍ عظيمٍ لدى رؤيةِ زيزي وهَباب. وتَمَنَّيتُ لو تسمَح لي منى، في بعضِ الأوقات، بأن أنزِلَ إلى الشارع، وألعبَ معهما.

– شرطَ أن أرافقَك.

قالَت، وكأنَّها قرأَت أفكاري. ثمَّ تابعَت: – لا أريدُ أن يُعَذِّبَكَ الأولاد.

هناك عِصابةٌ من الأشقياء، تتسلّى بتعذيبِ القِطَط. وأنا أخافُ عليكَ كثيرًا، يا زيكو.

وحافَظَت منى على وعدِها. وصارَت تَحمِلُني، كلَّ يوم، وبعدما تعودُ من المدرسة، ونَهبِطُ إلى الشارع لِنَلعبَ مع زيزي وهباب. ولم أحسبْ حسابًا لما سيجري في الغد.

أين زيزي؟

كان الوقتُ ربيعًا. بعضُ الغيومِ البيضاءِ يَنتشرُ في الفضاء، فوقَ الجهةِ البحرية. والشمسُ مُشرِقَةٌ، دافئةٌ معظمَ ساعاتِ النهار. وأشجارُ الحديقةِ في جوارِ البيتِ، بدأَت ترتدي حلَّتَها الخضراءَ اليانعة، والهواءُ اللطيفُ يُداعبُ أغصانَها. قضَيتُ نهاري بانتظارِ عودةِ منى من المدرسة، لكي نخرجَ ونلعبَ مع هَباب وزيزي.

تأخَّرَت منى. انتظرتُها فوقَ الشُّرفةِ، وقد تعلَّمتُ كيف أخرجُ إليها وحدي من خلال شقٍّ صغيرٍ في الباب.

انتظرتُ أن يُطِلَّ «أوتوكار» المدرسةِ وقد بِتُّ أعرِفُه من هدير محرِّكاته، ومن الزمّورِ يُطلِقُه السائق، إشارَةَ مرورِه في الحيِّ. وبعد تَأخُّرٍ دامَ عدَّةَ دقائق، حَسِبتُها دهرًا، وصل «الأوتوكار»، وأبصرتُ منى وزينة، ابنةَ الجيران، تقفزانِ بِمَرَحٍ، وقد ارتدتا الزيَّ المدرسيَّ الأزرق الأنيق. وحملَت كلٌّ واحدةٍ حقيبةَ كُتُبِها وحاجاتِها المدرسية.

سارَعتُ إلى البابِ لأستقبلَ منى، وطلبتُ منها أن تخرجَ معي، مثلما نفعَلُ كلَّ يَوم. فاستَمْهَلَتني قائلة: – عندي درس، يا زيكو. انتظرْ ريثما أَفْرَغُ، فننزل معًا... موافق؟

– مياو...

لم يكن هناك ما يُلْهيني، فعُدتُ إلى سريري وغَفَوْت.

لا أعلمُ كم مضى من الوقتِ قبل أن أسمع صوتَ منى يناديني: – يا الله، زيكو... تعال. أنا حاضرة!

سارت أمامي، وتَبِعتُها. ومَعَنا، كان صوتُها اللطيفُ يَتَرَدَّدُ مشجِّعًا: – برافو، زيكو. صرتَ تعرفُ الطريقَ وحدَك. أنت الآن ولدٌ كبير، ولا تحتاجُ إلى من يحملُك على السُلَّم.

كانت تُحادثني، وتُسلّيني، ثمَّ فجأةً، صَمَتَت؛ وقدَّرتُ أنَّ هناك حَدَثًا مقلقًا. وصحَّ تقديري، إذ لم نلبثْ أنِ اكتشفنا غيابَ زيزي.

– أين زيزي يا هَباب؟.. أين زيزي يا عمّ ناجي؟

منى تسأل. وهَباب ينبح، وعَمّ ناجي يشرح:

– زيزي؟... راحت زيزي. الصِبْيَةُ الداشِرونَ في الحيِّ قتلوا زيزي.

– كيف؟...

سألت منى بصوتٍ باكٍ، فقال:

– أولادُ الجيران يتسلَّون «بأمّ خردقة» وصوَّبوا بندقِيَّتَهم عليها، واصطادوها. مسكينة زيزي.

– معقول؟ ما ذنبها؟...

سؤال منى بقيَ معلَّقًا في الهواء. وكنتُ أبكي في داخلي. صديقتي الوحيدةُ قُتِلَت. والشمسُ المشرقة في حياتي انطفأت.

بقيت منى، طوالَ فترةِ المساء، صامِتَة. وكانت تحمِلُني، وتغمُرُني بحنانٍ وهي تهمِسُ في أذني: – سوف أحميك يا زيكو... أحميكَ من كُلِّ أذى.

موسِمُ الاصطياف

انقضى أسبوعٌ، وأنا غارقٌ في حُزني، مغمورٌ بصمتي. ثمَّ جاءت منى بخبرٍ جديد:

– سوف نصعدُ إلى الجَبَل، وسوفَ تُرافقُنا إلى بحمدون. هناك في وِسعِك أن تسرحَ في الحديقة، بعيدًا عن أذى السيَّارات والأولاد الزُعْران. لقد بدأتِ العُطلةُ الصيفيةُ يا زيكو.

– مياو...

جلستُ أتأمَّلُها، وهي تجمَعُ حاجاتها: كُتُبَها، دَفاتِرَها، وعُلبةَ الألعابِ والأقلامِ الملوَّنة:

– لازم ناخُذْ حاجاتِ الترفيه، الجبل جميل. لكنَّ الواحد يَضْجَرُ إذا لم يقرأ ويَرْسُم وَيَعزفِ الموسيقى. أكيدْ يا زيكو، رَح تْحِبْ بحمدون.

برغم تَطْمينات منى فقد انتابَني شعورٌ قَلِقٌ حين حملَتني إلى السيارة، وكأنَّها أحسَّت بذلك، فَغَمَرَتني بذراعَيها طوالَ الطريق:

– إنَّكَ ترتجفُ يا زيكو المسكين، مع أنّنا في فصلِ الصيف. أنتَ خائف... لا تَخَفْ يا زيكو. أبي سائقٌ ماهر. انظُرْ إلى التلالِ الخضراء، وفوقَها انتشرتِ البيوتُ بسطوحِها الحمراءِ الجميلة. الدنيا واسعةٌ في الجبل. لا تَخْشَ شيئًا يا زيكو.

***

أَسْتَمِعُ إلى منى، وأُصَدِّقُ كُلَّ ما تقولُهُ لي. وحين وصلنا، قادَتني إلى ركنٍ من غرفتِها، حيثُ وَضَعَت سريري ثمَّ دَعَتني لنَخرُجَ إلى ساحةِ الدار:

– هذا ملعبُك يا زيكو، هنا تقفزُ وتنطّ، وتتسلّقُ شجرةَ السنديان العاليةَ على مزاجك. انظُرْ أغصانَ السنديانةِ تصلُ حتّى الطابقِ الثالث من العمارة، هذه أضخمُ سنديانة في الجوار، وكلُّها لحِسابك. ومَنْ يَدْري؟... فقد تلتقي صديقةً جديدةً بَدَلًا من زيزي.

كلماتُها تَنسَكِبُ في سَمعي بلطف، لكنها تُثير أحزاني، وذِكرى صديقتي العزيزة:

– مياوو...

– هل يُعجبُكَ الجَوُّ؟... هل هذا ما تَوَدُّ أن تقولَه، يا زيكو؟...

– مياو!...

***

منى على حق.

هنا، في الجَبَلِ، الدنيا واسعة، وأتحرَّكُ بحرِّيةٍ، فلا أنتظرُ موعِدَ فَتْحِ البابِ وإغلاقه، إذ إنَّ الأبوابَ تبقى مُشرَّعَةً معظمَ الوقت. وهناكَ طاقةٌ خاصَّةٌ بي، أستخدِمُها في الخروج والدخول، متى أشاء. في هذا البيتِ، يحسِبون حسابي، بعكسِ شُقَقِ السَّكَنِ في بيروت.

منى، لم تكتشفِ الطاقةَ بسرعة؛ قفزتُ إليها، ورُحتُ أناديها:

– مياو... مياو...

سَمِعَت ندائي، وحَضَرَت بسرعةٍ، وحين أبصَرتني في الطاقة، فَرِحَت كثيرًا، وقالت:

– يُمكِنُنا أن نلعبَ معًا، لعبةَ الغُمَّيضة، دون أن نستَعين بالأبواب.

***

بعد انقضاءِ أسبوعٍ على إقامتي في بحمدون، بِتُّ أعرفُ كلَّ زوايا البيتِ والحديقة. وقد غامَرتُ في إحدى المرّات، وخَرَجتُ إلى حديقةِ الجيران.

لكنّي التزمتُ بوَعدي لمنى، بأن لا أخرجَ وحدي إلى الشارع، مطلقًا:

– خطرُ الموتِ يا زيكو... هنا، تَمُرُّ السياراتُ مُسرِعَةً، ويَتَجَمّعُ أولادٌ لا نعرفُهم، ولا نعلمُ كيف يتصرَّفون. أخافُ عليك، يا زيكو... لا تخرجْ إلى الشارع أبدًا.

– مياوو...

ومن دون أن تذكرَ زيزي، فهمتُ أنَّها السببُ في تحذيرِ منى، وتَشدُّدِها في المحافظة عليّ.

اكتفَيتُ بالتجَوُّلِ في الدار، وفي الحديقة. وصرتُ أتمرَّنُ على تَسَلُّقِ جذعِ السنديانة، وأرتَفِعُ كلَّ يومٍ أعلى وأعلى. فيبدو ليَ المشهدُ، من العُلُوِّ، جميلًا، ومختلفًا. وأسمعُ زقزقةَ العصافير، من قُرْبٍ، وأحلمُ بيومٍ يصبحُ في إمكاني أن أُطاردَها، وأصطادَ بعضها.

وكانتِ العصافيرُ، إذا شَعَرَت بوجودي، تتجمَّعُ مذعورةً، ثمَّ تطيرُ رُفوفًا.

ويبدو أنَّ هذا السلوكَ لم يُعجِب منى، فسمعتُها تُناديني من أسفلِ الشجرة:

– إنزِلْ يا زيكو. أنتَ ولدٌ طيِّبٌ لا أريدُك أن تؤذيَ العصافير. فهي أيضًا مخلوقاتٌ جميلةٌ ولطيفةٌ، تنشُرُ الفَرحَ بزقزقَتِها وغِنائها. لا تَقُمْ بأيِّ عملٍ يُؤْلِمُها، يا زيكو...

– مياوو...

لم يكُن أمامي بدٌّ من الانصياعِ لأوامر منى. ولم أقدر أن أشرحَ لها أنَّ نِيَّتي بَعيدةٌ عن الشرِّ والأذى. فقط، أُجَرِّبُ مهارتي في التسلُّق والتحدّي.

***

فُرصةُ الصيفِ الجبلية علّمَتني دروسًا جديدة. وكانت منى تُشركني في ألعابِها، وتَحمِلُني فوقَ الأُرجوحَةِ المنصوبةِ بأحدِ أغصان السنديانة:

– أنتَ شاطِر يا زيكو. وأريدُك أن تتعلَّمَ كلَّ الألعاب: القفز فوق الحبل، ركوب الدرّاجة، دحرجة الطابة، القفز والجري، كلَّ شيء.

في بعض الأيام، كان يزورُنا أولادُ الجيران، فنلعبُ «الغمَّيضة» وهم يُسَمُّونها «مين نَقَفِك يا جاموسَة؟» وفي المساءِ نوقدُ النار، ونجلسُ جميعًا للعشاءِ على «السْطَيْحة» تحت خيمةِ العريشةِ الخضراء. حتّى إذا انتهى العشاءُ، حَمَلَتني منى إلى أرجوحتها، وراحت تَهزُّني، حتّى أغفو. عند ذلك، ترفعُني بهدوءٍ، وتنقُلُني لأنامَ في سريري.

الأنشودة العذبة

كانت مُنى لا تزالُ غافية، حين نهضتُ في الصباح الباكرِ على زقزقةِ العصافير فوقَ الشجرة. عَشَراتُ الأَنغامِ، تتآلفُ، وتنطلِقُ عَذبَة، تستَقبِلُ نهارًا جديدًا من أيّامِ الحياةِ.

هَرَعتُ إلى الطاقةِ السرِّية – طاقتي – وتَسَلَّلتُ منها إلى الخارجِ، ثمَّ رُحتُ أتَسَلَّقُ جِذعَ السِنديانة... و... هوب... قفزتُ على أقربِ عُصفور، وكان عُصفورًا دوريًّا، رماديَّ اللون، صغيرَ الحجم. لم يَحسَبِ المسكينُ لحضوري حسابًا. وكان مرتاحًا، مرحًا فوق الغصن، بعيدًا عن رفاقِه وفاجأتُه. فأطلقَ صرخةً حادّة، ثمَّ هَرَبَ وطارَ إلى شجرةٍ مُجاورة. صَرْخَتُهُ أفزعَت رفاقَه فَرفَّتِ الأَجنِحَةُ، وكأنَّها جناحٌ واحدٌ، وحَلَّقَت بعيدًا.

ومع أنّي لم أُوَفَّقْ بصيدِ واحدٍ من العصافير، إلّا أنَّ شعورًا من الزَهْوِ رافَقَني طوال النهار: فأنا قوي. وقوّتي أخافَت سربًا من العصافير.

***

نزلتُ من الشجرةِ ببطء وأنا أجتَرُّ طَعمَ المُغامرة. وما كِدْتُ أخطو خَطوتين حتّى كانت يدُ منى تَتَلَقَّفُني، ثمَّ ترفعُني عَنِ الأرضِ وتصرُخُ في وجهي:

– أَزْعَرْ.. خالفتَ أمري يا زيكو!... أما نَبَّهتُكَ؟ هل تعودُ إلى إخافةِ الطيورِ مرّةً أخرى؟ هاه!... قلْ...

– مياوو...

كلامُ منى آلمني. ولم أندَمْ على مطاردةِ العصافير، بل لأنّي أَثَرْتُ غَضَبَها. غَضِبَت منى، أعَزُّ صديقة. ولكن، كيف أُفهِمُها، بأنّه ليس سهلًا عليَّ أن أُبَدِّلَ

طبعي، وأتخلّى عنِ الغرائزِ الساريةِ في دمي؟

نُزهة في الكروم

لزِمتُ الهدوءَ طوالَ ذلكَ النهار. وفي المساءِ، دَعَتني منى لِنَخرجَ معًا في نُزهةٍ إلى الكَرمِ المُجاور: – تُحِبُّ العنب، يا زيكو؟... بِنْتُ الجيرانِ دعَتنا إلى كرمِهِم. عندهُم عِنَبٌ لذيذ.

– مياو...

– تعالَ... هيّا بنا.

حَمَلَتني فوقَ كتِفِها، وبقيَ ذنبي متدلِّيًا على صَدرِها. وكانتِ النساءُ الجالساتُ فوقَ الشرفَة يُعَلِّقنَ على ذلك بعباراتٍ ساخِرة. قالتِ الأولى: – شو، هذا إبنُك يا منى؟

وتبعتْها الثانية:

– للبيعْ هالبْسين؟...

والصبِيّةُ المُتَّكِئَةُ على سورِ الحديقة، قَرَّبَت مِنَّا وجهَها، وراحَت تتأمَّلُني، ثمَّ سمعتُها تقول: – ياهْ، شو مَهضوم صاحبك، يا منى! فردَّت منى فورًا: – هذا زيكو...

وضَحِكَتِ الفتاةُ قائلة: – زيكو... اسمٌ جميل. لكن هو أحلى من اسْمِه.

وحين وصَلْنا إلى الكَرمِ، نَسينا أقوالَ النساء، ورُحنا نَبحثُ عن عناقيدِ العنبِ المُخَبَّأةِ بين ثنايا الأغصانِ الخضراء.

ثمَّ أقبل الخريف

إنقضى الصيفُ، الفصلُ الدافئُ اللذيذ. عَرَفْتُ ذلك حين هَبَّتِ الرياحُ، وهَبَطَ غِطاءٌ من الغيومِ على البيتِ والحديقةِ، وتَمَدَّد فوقَ الكرومِ المُدَرَّجَةِ حتى أعماقِ الوادي. كنتُ أقفُ فوقَ الجدار، أَتأمَّلُ هذا التَحَوُّلَ في الطبيعة، ولا أستطيعُ رؤيةَ الأشياءِ البعيدة. حدودُ النظرِ كانَت تنتهي عند أسوارِ الحديقة.

إقتربَت منى منّي تَغْمُرني بذراعَيها وتقول: – تُحِبُّ فَصْلَ الخريف، يا زيكو؟ ها هو يُعلِنُ قدومَه، وهذا يعني أنَّ المدرسةَ تفتحُ أبوابَها قريبًا، وعلينا أن نرجعَ إلى بيروت.

أَفَهِمْتْ؟

– مياو...

كنتُ أقولُ لها، باختِصارٍ، إنّي تَحْتَ أمرِك يا صديقتي.

وتابعَت منى حَديثَها عن المدرسة، فأَثارَت في نفسي الغيرة: فأنا أحِبُّ أن أكونَ مثلَها، تلميذًا مجتهدًا، أَحمِلُ حقيبةَ كُتُبي، وأذهبُ صباحَ كلِّ يومٍ إلى المدرسة. وقد شرحتُ لها ما يُخالِجُني من أفكار، ونحن نَجلِسُ معًا، ونلهو بمداعبة الكُرةِ، فربَّتَت وجهي وقالت: – ليتَ المديرة تَرضى بهذه الفكرةِ يا زيكو... فأنا أتوقُ أيضًا إلى رفقتِك، ولكن...

– لماذا؟... لماذا؟...

سألتُها بحماسةٍ، فقالت:

– إدارةُ المدرسةِ حَسَمَتِ الموضوعَ من زمان: لا قِطط، ولا حيوانات في المدرسة.

ثمَّ قرَّبت منى فَمَها من أذني وقالتْ بصوتٍ منخفض: – أظُنُّهم يخشَونَ سَطْوَتَك يا زيكو... يَخافون على العصافيرِ المرفرِفةِ بين الأشجار، والجُرذانِ البيضاءِ التي يُربُّونها في أقفاصٍ قريبًا من روضةِ الأَطفال.

***

كنتُ قد تعوَّدتُ حياةَ الجبل. وارتَحتُ إلى حرِّيَّتي المطلقة، أتنزَّهُ بين أشجار الحديقة، وأتسلَّقُ بعضَها، بقصدِ مداعبةِ العصافير. وكنتُ أَفرحُ حين أراها تَطيرُ بدافعِ خَوْفِها الغريزي من جنسِنا نحن القِطَط. ولو كانت تَفْهَمُ لغتي، لَشَرَحْتُ لها عن حُسنِ نيَّتي: فأنا أقصدُ مُداعَبَتَها، ولا أُريدُ لها الأذى. لكنَّها هكذا تلك الطيورُ الدوريةُ، في حالةِ خوفٍ دائمة.

وسوفَ أفتقدُ كثيرًا السنديانةَ العتيقةَ، ومُتْعَةَ التَسلّقِ إلى أعلى نقطةٍ من جذعها. لكنّي سعيدٌ بعودَتي إلى بيروت، وإلى غرفتي الصغيرة، وشُرفتِها المُطلَّةِ على البحر.

لم أُلاحِظْ كم كَبُرتُ خلال أشهرِ الصيف، إلّا بعدما ألغَت منى سريري الصغير: – لم يَعُدْ يَليقُ بكَ، يا زيكو. هذا سريرُ أطفال، وأنتَ الآن كَبُرْتَ...

ثمَّ حملَتني، وَوَقَفَت بي أمام المرآة:

– أُنْظُرْ، هل تَفْهَمُ قصدي؟ كَبُرتَ كثيرًا، يا عزيزي.

وَقَفْتُ أمامَ الزُجاجِ المُستَطيل، أُحَدِّقُ إلى زيكو الآخر داخلَ المرآة. وجَلَسَت هي بقربي، تتأمّلُني وتبتَسِمُ. ثمَّ نهضَت مسرعة، وخرجَت من الغرفة وهي تُردِّد: – إنتظرني هنا، لا تَتبعني.

وحين عادت، كانت تَحمِلُ سريرًا كبيرًا، من الخَشَبِ، وَضَعَتهُ في الزاوية وفَرَشَتهُ بمَرتَبةٍ من الإسفنج الطريِّ، مغلَّفةٍ بقماشٍ مُزخرفٍ بِعِدَّةِ ألوانٍ، وعَقَدَت فوقَ قُبَّةِ السريرِ شريطةً زرقاء: – هنا، سَتَنامُ، بعد اليوم. نَوم الهنا، يا زيكو.

– مياو... مياو...

كنتُ أشكرُها بِلُغتي، وبكلِّ الحُبَّ النابضِ في كياني. مدَّت يدَها باتِّجاهي وقالت: – مُدَّ يَدَكَ، وسَلِّم عليَّ، قُلْ شكرًا حقيقيًّا، وبِصَوتٍ عالٍ...

– مياووو...

***

كان اليومُ الأوَّلُ من أيّام المدرسةِ صعبًا عليَّ. فقد تعوَّدتُ، طوالَ أشهر الصيف، حُضورَ منى الدائم في البيت. وتعوَّدتُ الخروجَ إلى الطبيعةِ الرحْبة، والتنزُّهَ في الحديقةِ الجميلة. أمّا الآن، فأنا في بيروت، في غرفتي معظمَ الوقتِ؛ وإذا غامرتُ أخرجُ إلى الشرفة. في الحقيقة أنّي لم أَعُدْ أحبُّ الخروجَ إلى الشرفة بعد غيابِ زيزي. وهباب ظلَّ بعيدًا عنّي، شديدَ الحَذَرِ والخوف. وأنا كنتُ أخافُهُ حينَ ينبَحُ، فأَهْرَعُ إلى الداخل، وأحتمي بسريري، ثمَّ أجلِسُ بانتظارِ أن تَمُرَّ الساعاتُ وتَرجعَ منى من مدرستها، وحالما أسمعُ هديرَ «الأوتوكار» أَهْرَعُ إلى الشرفة، وقد دَبَّت فيَّ حياةٌ جديدة.

***

كان كلَّ ما حولي هادئًا في ذلك النهارِ الخريفي. فهو يومُ عطلة لمنى. وهذا يعني أنَّها ستُداعِبُني، ثمَّ تَسْمَحُ لي بالجلوسِ قُربَها، بينما تُعِدُّ دروسَها، أو تكتبُ فروضَها المدرسية، حتّى إذا انتهَت، قامت تعزِفُ أنغامًا عذبةً على البيانو، إلى أن يحينَ وقتُ الغداء. لكنَّها قَطَعَتِ العَزْفَ فجأةً وتوجَّهتُ إلى المطبخ: – إجلسْ هنا، يا زيكو، فأنا مشغولةٌ مع الماما في إعداد الطعام، اليومَ عندَنا ضيوف للغداء.

– مياو...

وافَقتُها، ثمَّ قَفَزتُ إلى مكاني المُفَضَّلِ قُربَ النافذةِ المطلَّةِ على الشارعِ العريض، ورُحتُ أتسلّى بمراقَبةِ المارَّة: الناس المشاةُ، والعربات، وبعد قليلٍ من الوقتِ، سمعتُ جَرَسَ الباب يُقرَع، فَهَرَعَت منى وفَتَحَتِ الباب، وأنا أتبعُها لأستَقبِلَ معها الضُيوف. وكانوا مجموعةً من السيِّداتِ والرجال والأولادِ، دخلوا، ومعهم ازدادَ الصخبُ والضجيجُ. وجَرَت منى إلى غرفتِها، فأحضرَت بعضَ الألعابِ، ودَعَتِ الأولادَ لكي يَمرَحوا، ولم تَنْسَ أن تُعَرِّفني إليهم. اقتربَ أحَدُهُم، واسمُه كريم وراح يتلمَّسُ ظهري بلطف. وكان رفاقُه منهمكينَ بألعابهم، فلم يهتمُّوا بي. ولم يَمْضِ وقتٌ طويل حتّى سَمِعتُ والدةَ منى تنادينا:

– الغداء حَضَر. يا الله يا أولاد.

لأنّي أحبُّ الورد

جلس الضيوفُ مع أولادهم حول المائدةِ العامرةِ بأشهى المآكل. وكنتُ أراقِبُهُم من مكاني، فوقَ الكرسي الهزّاز، ولَفَتَت انتباهي زَهْريةٌ تَحوي باقةً جميلةً من الوردِ الأحمرِ، وكانت موضوعةً فوق طاولةٍ جانبيةٍ في غرفةِ الطعام.

أغراني لونُ الوردِ وجذبني شذاهُ العَطِر، فَشَعَرتُ بقوَّةٍ خارقةٍ تَجُرُّني لأقتربَ من باقةِ الورود. وتَبِعتُ تلكَ القوَّةَ من دون وعيٍ، وحين بَلَغتُ المائدةَ، قَفَزتُ فوقَ سَطحِها، حتّى بتُّ في مستوى المزهرية ثمَّ اقترَبتُ منها أكثر، لأتَشمَّمَ عِطرَها الساحرَ. هذا كلُّ ما أذكُرُه حتّى تلكَ اللحظة. لكنَّ ما جرى بعد ذلك كان خارجًا عن نطاقِ إرادتي؛ فقد نَهَضَت إحدى السيِّداتِ عن كرسيها، وهَجَمَت عليَّ وهي تهشُّ بيدَيها وتَزعَقُ بصوتٍ أَرعَبَني:

– بِسّ... بِسّ... انزِلْ من هنا... انزلْ... ولم تَكتَفِ بالتأنيبِ، بل مَدَّت يَدَها وضَرَبَتني على رأسي، وأنا لا أعرِفُ سببًا لتَصَرُّفِها. وكلُّ ما فَعَلتُهُ في البدء أنّي أخَذتُ أموء: مياو... مياو... مُعبِّرًا عن الغضبِ والضيق. لكنَّها لم تَفهَمْ لغتي، وعادَت تَضرِبُني وتَدفَعُني لأنزِلَ من فوقِ سطحِ المائدة. عندها تأهَّبتُ للدفاعِ عن نفسي، وبالطريقةِ الطبيعية التي أَعرفُها؛ زأرتُ في وجهها، وكَشَّرتُ عن أنيابي لأُخيفَها ثمَّ تَحَفَّزت مخالبي ورَدَدتُ لها الضربة. وقد أصابت إحدى الضرباتِ المزهرية، فانقلبت واندَلَقَ الماء فوق المائدة، وبَلَّلَ غطاءها الأنيق، ثمَّ راحَ ينسابُ إلى أرض الغرفة، وأصابتني منه بضعُ قطراتٍ كانت كافيةً لتزيدَني رُعبًا وهياجًا. وثارَ في أعماقي ذلك الخوفُ الغريزيُّ من الماء، ففقدتُ السَّيطرَةَ على أحاسيسي وعلى نفسي وسلوكي. وسَمِعتُ الضيوفَ يُردّدون:

– جُنَّ زيكو، جُنَّ، فَقَدَ صوابَه.

نعم، أنا زيكو، لكنَّ الذي فَقَدَ صوابَهُ هو الكيانُ الشَرِسُ فيَّ وقد عاد إلى الغابة، وراحَ يقفزُ فوق الكراسي التي فرغَت من المدعوّين، وفوقَ الطاولات، ويهدِّدُ دون وَعْيٍ، بالمِخلبِ وبالناب. ويَتَوَعَّدُ كلَّ من تُسَوِّلُ له النَفْسُ أن يَقْتَرِبَ منه، ويُرسِلُ فحيحًا مُرعِبًا تَقْشَعِرُّ له الأبدان.

لستُ أدري ما الذي جَعَلَ والدَ منى يَظُنُّ أنَّ في وسْعِه احتوائي في قبضَةِ يدِه؛ وما إن مدَّ يدَهُ إليَّ حتّى تَلَقَّفَتهُ براثني بشراسةٍ أسالتِ الدمَ من خدوشٍ عميقةٍ أصابَت زندَه، ويَدَه. عندها، خَرِسَ الحضور، وتَسَمَّروا في مقاعدهم، بينما الوجهُ الآخر، الكيانُ الشرسُ فيَّ ظلَّ يقفزُ ويُهَدِّدُ من كلِّ صَوب.

نهضَت والدةُ منى، وسارَت بعيدًا عن «المعركة» وتَنَاولَت سمّاعةَ التلفون، لتَتَّصِلَ بالطبيبِ البيطري في مستشفى الجامعة الأميركية.

لا أعلمُ أيَّةَ نَصيحةٍ اقترحَ الطبيبُ، لكنّي أعرفُ أنَّ السيِّدةَ أعادتِ السمّاعةَ إلى مكانها وأخذت تُناديني بلطفٍ، ثمَّ سارَت إلى غرفةِ النوم، حيث يوجدُ سريري وظلَّت تناديني:

– زيكو... تعالَ يا زيكو.

لكنّي بقيتُ مُسَمَّرًا في مكاني وقد فَقَدتُ الثِقَةَ بالجميع، وحتّى بتلكَ السيِّدةِ وقَرَّرتُ أن أتجاهلَ نداءَها، ولا أتبَعَها.

وحين اكتشفَت ذلك، عادَت إلى كرسيها حولَ المائدة، واقتدى بها الضيوف، فتابعوا تناولَ طعامِهِم متظاهرين بالهدوءِ والطُّمأنينة.

وكان من الممكنِ أن يَظَلَّ الجَوُّ طبيعيًّا وهادئًا من البدايةِ حتّى النهاية، لو لم تُهاجِمْني تلك السيدةُ فَتَعتَدي عليَّ بالضربِ لأنّي... لأنّي أحبُّ أن أَشُمَّ عِطرَ الوردة.

وتبدَّلت حياتي

بعد تلكَ الحادثة، تَبَدَّلَ كلُّ شيءٍ في حياتي؛ علاقتي بالناس مِن حَولي، وعلاقتي مع نَفسي، وجَسَدي. سوف أحملُ الحزنَ في أعماقي دائمًا، ولن يُفيدَني لُطفُ صديقتي منى، وحُبُّها لي، وقد تَضَاعفَ، ربَّما لكي تُعوِّضَني من قَسوَةِ الآخرين.

أروي حكايةَ التَحَوُّلِ خَطوَةً خَطوَة، وأتذكَّرُها بهدوءٍ ويَقين: بعدما انصرفَ الضيوفُ، سَمِعتُ نِقاشًا حادًّا يدورُ بين منى ووالدَيها، وأدركتُ بالغريزة أنّي موضوعُ ذلك النقاش؛ ثمَّ اقتربَت منّي منى وراحَت تَتَحَسَّسُ جِسمي بيدِها اللطيفةِ كي تُعيدَ إليَّ شعورَ الطمأنينةِ وكنتُ قد فَقَدتُه لبضعِ ساعات. لم أسمَعْها تُحدِّثُني مثلما تفعلُ دائمًا؛ لكنَّ لَمَساتِها كانت تُخبرُني عن حزنها وعن قَلَقِها. وحين وَصَلَ الطبيبُ مساءً، فَهِمتُ سَبَبَ حُزنِها؛ فقد حَضَرَ الطبيبُ بدعوةٍ من العائلةِ وبقرارٍ جَماعيٍّ اتُّخِذَ قسرًا عن صديقتي، لإجراء عملية اقتلاعٍ لمخالبي من الجذور.

قالَت لأمِّها، في معرضِ دفاعِها عنّي:

– زيكو إبني. هل تَقبَلين أنتِ أن تُجري هذه العَمَليَّةَ لابنك؟ سأدافعُ عنه، نعم.

وكانَت تبكي. وسَمِعتُ الأمَّ تردُّ بحزم:

– إمّا العملية، أو نُرسِلُه بعيدًا. زيكو بات خَطَرًا يُهَدِّدُنا جميعًا. ولم تنجحْ منى ودفاعُها، لكنَّ العمليةَ نجحَت.

***

نهضتُ من أعمقِ نومٍ عرفتُه. كانت يَقْظَتي أشبهَ بولادةٍ جديدةٍ. لكنَّ الخِفَّةَ التي كانت تدفَعُني إلى القفزِ والجري فارَقَتني لعدَّةِ أيام. كنتُ أشعرُ بثِقَلٍ يجرُّني لأبقى مكاني، أو أسيرَ على مَهَل. وكانت منى بِقُربي تؤاسيني، وتُحضِرُ لي الطعامَ والشرابَ. لكنَّ ذلك لم ينفعْ كثيرًا، وكان عليَّ أن أنتظرَ بعضَ الوقت، لأنسى ما جرى لي. ولاحَظتُ بأنَّ منى لم تَعُدْ تُكَلِّمُني: فقط كانت تَتَحَسَّسُ وَبري بيدَيْها الناعِمَتَين وتغمُرُني، وتُبقيني في حِضنِها لتؤكِّدَ لي أنَّ حبَّها لي لم يتغيَّر. وقد عبَّرَت عن عَطفِها رسالةٌ عذبةٌ وجدتُها مُعَلَّقَةً فوق سريري. فتحتُها، وهذا ما قرأتُ:

***

عزيزي زيكو،

الحمدُ لله على سلامَتِك. فَرِحتُ بأنَّك عُدتَ إليَّ سالمًا وبأنَّ العَمَليةَ لم تُسَبِّب لك الألم، لأنَّ الطبيبَ لجأ إلى المُخَدِّر مثلما يفعلونَ حينَ تُجْرى عمليةٌ لإنسان. أعتَذِرُ منكَ، عنهم جميعًا يا زيكو. وأعترفُ لك بأنّي فَشِلتُ في إقناعِ أهلي بالتخلّي عن العملية. حتّى الطبيب وَجَدَ أنَّ هذا أفضلُ حلٍّ لكي تبقى معنا، خصوصًا وأنَّك جرحتَ الوالدَ جُرْحًا بليغًا اضطَرَّهُ إلى أن يَذهبَ إلى المستشفى.

لقد «زدتها» يا زيكو، وتجاوَزتَ الحدَّ المعقول.

لا حاجةَ إلى القول بأنّي حزينةٌ، لكنّنا سوف نَتَجاوزُ ذلك كلَّه متى شُفيتَ، وعُدتَ إلى حياتِك المألوفة.

أُحِبُّ أن أقولَ لك، يا زيكو، إنَّ العمليةَ هي ثَمَنُ إقامتِكَ في مسكنٍ مُريح ومُرفَّه بين البشر؛ كما أنَّ شراسَتَكَ الطارئةَ هي ثمنُ وجودِكَ غيرِ الطبيعيِّ مدجَّنًا في بيت، بدلًا من أن تكونَ حرًّا طليقًا في الغاب. هل أنَّ الحقَّ عليك؟... عليَّ؟... عليهم؟... أسئلةٌ كهذه لا تَجِدُ أجوبةً بسيطة. وكلُّ ما يمكنني قولُه الآن أنّي سعيدةٌ لأنّك باقٍ معنا، وأعدُكَ بأن أبقى بجانِبِك دومًا.

صديقتك منى

تغيّرتُ كثيرًا. أشعرُ بذلك، ولا أظنُّ أنَّ منى تجهلُ هذا التحَوُّل: فهي تقتربُ منّي كلَّما سَنَحَت لها الفرصة، فتحمِلُني وتُحادثني، وتُدلِّلُني، وتَغمُرني بِحُبِّها ورِقَّةِ شعورِها، وتختارُ لي من الطعامِ ما أُحِبُّه. وقد ساعدَتني عنايتُها ومحبَّتُها

على العودةِ إلى الحياةِ الطبيعيةِ في وقتٍ قصير. ولم ألبثْ أن بدأتُ بالجري والقَفزِ، لكنّي صِرتُ أخشى الخروجَ من البيت. اكتشفَت منى نزعةَ الخوفِ هذه عندما دعَتني لكي أرافِقَها إلى الحديقة. فَتَحَت بابَ الدارِ وخرجَت، ونادَتني لأتبَعَها كما تَعوَّدَت أن تفعلَ في السابق، وقد تحرَّكتُ وسرتُ وراءها، حتّى إذا تجاوزتُ عتبةَ الدار أُصِبتُ بِرُعبٍ حَمَلني على العودة إلى الداخل، وبأسرع ما يمكن. رجَعَت لترى سببَ تأخُّري، وحاولَت أن تُعيدَني من جديد، إلى مرافَقَتِها، فقاومتُ بشدَّة:

– مياوو... مياوو...

– ما بِكَ، يا زيكو؟ ما الذي جرى؟... كُنْتَ تُحِبُّ الخروجَ إلى الحديقةِ والتَنَزّهَ بين الأشجار والأزهار... ما بكَ اليوم؟...

– مياووو...

أرسَلتُ احتجاجي بلهجةٍ قويَّة تفهمُها صديقتي. وقبل أن تتمكَّنَ من حَمْلي، كنتُ قد جَرَيتُ إلى الداخل، وإلى غرفتي حيثُ احتَمَيتُ بالسرير، وجَلَستُ أرقبُ دخولَها.

كان صعبًا على منى أن تفهَمَ شعوري، ولم يكن سهلًا عليَّ أن أشرَحَ لها. فأنا نفسي لم أفهم معنى ذلك التَحَوُّل.

بعد تلك المحاوَلَةِ، لم تَعُدْ منى تطلبُ منّي الخروج برفقَتِها إلى الحديقة. وقد مُنِعَت هي كذلك من الخروجِ بسبب الحربِ التي بَلَغَت انفجاراتُها حيَّنا.

ثمَّ بدأت الحرب

– يا محْتال، يا زيكو. شَعَرْتَ بالخطرِ قبل وقوعِه... كيف عَرَفتَ؟... من أعطاكَ كلمةَ السرّ؟

كانت منى تطرَحُ أسئلتها، وهي تَظُنُّ أنَّ رفضي الخروجَ معها إلى الحديقة، مساءَ البارحة، كان بِدافعِ حَدْسي، أو رؤيا خاصَّةٍ بي. وحين اقترَبت تغمُرني، بحنانٍ، لم أستطعْ إفهامَها بأنَّ لا علاقةَ لسلوكي وما حدثَ تلك الليلةَ من تَفَجُّرٍ وقصف. كان التحوُّلُ الداخلي هو السبب. وأنا لم أسمعْ كلمةَ حَرب، ولا أفهمُ معناها. وأوَّلَ مرَّةٍ طرقَت سَمْعي، كانت على لسانِ السيدةِ الكبيرة، والدةِ منى، وكانَت تُعطي تعليماتِها للجميع، وبصيغةِ الأمر:

– اليوم الخروج ممنوع. لا تُطِلّوا برؤوسِكُم من النوافذ. لا تجلِسوا أمامَ الأبوابِ أو النوافذ، واختاروا للجلوسِ الزوايا المُحاطَةَ بجدرانٍ كَثيفة. وحين تسمعونَ بدء القَصفِ، استعِدُّوا للهبوطِ إلى الملجأ... مفهوم؟...

قالت ذلك، ثمَّ غابت قليلًا، لتعودَ ومعها أكياسٌ صغيرة، وضعَت في كلٍّ منها بعضَ الأدوية التي تُستخدَمُ في الإسعاف: قطن. شاش أبيض. مُطَهِّرات. وشرائط لاصِقَة للجراح. قَدَّمَت لكلِّ فَرْدٍ من أفرادِ العائلةِ كيسًا وقالت: سيبقى هذا معكم أينما ذهبتُم، في البيت، في الملجأ، أو في الخارج.

هذا ما كنتُ أسمَعُه ولا أفهَمُ معناه، خلالَ الأيّام القليلة الماضية، وأصواتُ الانفجاراتِ غيرُ هديرِ الرعدِ الذي أَتوقَّعُهُ بالحَدْسِ، وأُحِسُّهُ في أعصابي قبلَ أن تسمَعَه أذناي.

صديقتي أيضًا تخاف

صديقتي الصغيرة هي أيضًا خائفة.

خَفَتَتِ الأصواتُ في البيت. الناسُ يتحرّكونَ بِصَمت. منى لا تضاحِكُني أو تُمازِحُني مثلما تعوَّدَت. صارت تجلس بقربي، بين يدَيها كتاب، ولا تقولُ شيئًا. وفي بعضِ الأحيان، تمدُّ يدَها، تتلمَّسُ ظهري، ثمَّ تغمرُني وتَهمِسُ في أذني: – لا تَخَفْ يا زيكو. ما دُمتَ معنا، لا تَخَفْ.

وفي إحدى المرّات، تركَتني وقامَت إلى النافذة، وأطلَّت منها على الطريقِ في الخارج، لكنَّها لم تلبثْ أن تراجَعَت، فحملَتني، ولجأَت بي إلى زاويةٍ بعيدةٍ وهي تُتَمْتِمُ: – المُسلَّحون. أبصرتُهُم ينتشِرون في الحيّ. الآن، أنا خائفة، يا زيكو.

– مياوو...

قلتُ لكي أُطَمْئِنَها. لكنَّها تابعَت تقول: – أبصَرتُهم، في طريقِ العودةِ من المدرسة. كانوا في الشارعِ البعيد، ولم أعلَمْ بأنَّهم سوفَ يصِلونَ إلى حيِّنا. أَصِفُهُم لك يا زيكو؟... ملابِسُهُم مُرقَّطة، ويحمِلون البنادق، والقَنابل (آرِ بي جي) هل سَمِعتَ هذا الاسم مِن قبل؟... لا؟... ولا أنا سَمِعتُه. بعضُ المُسَلَّحين يقودون سياراتِ «الجيب» وفوق كلِّ سيارة مِدفَعُ «دوشكا». هل تَعرِفُ «الدوشكا»؟... أنا حَسِبتُهُ اسمَ فتاةٍ لطيفةٍ، لكنَّ أبي شَرَحَ لي معناه... وهو ليس لطيفًا يا زيكو بل إنَّه مُخيف.

***

وفي ذات يومٍ عادَت منى من المدرسةِ مُضطَرِبة. وضَعَت حقيبتَها على أرض الغرفة، من دون أن تلتَفتَ إليَّ أو تَرفَعَني إلى حضنِها، لتُدلِّلني مثلما هي عادتُها. سَمِعتُها تُنادي أمَّها، فتبعتُها قلقًا عليها، ثمَّ وقَفتُ بعيدًا، أُصغي إلى حوارٍ تَحَوَّلَ إلى نقاشٍ حادٍّ بين البنتِ وأمِّها: – أنتِ لا تُخبرينني الحقيقةَ كلَّها يا ماما.

وقاطعَتها الأمُّ:

– ماذا تقولين؟ ماذا أسمع؟

– نعم، الأولادُ في المدرسة يقولونَ إن المُسَلَّحين هَجَموا على القرية، وقَتَلوا أهلَها جَميعًا... أنتِ تُخفين عنّي ما يَجري. إقتربَت أمُّها تَغمرُها وهي تُرَدِّد: – إنَّها الحَربُ، يا حبيبتي. شِئْتُ أن أُبقيَكِ بعيدةً عن بشاعةِ ما يحدث... أردتُ أن أحمِيَك، أنتِ وإخوتَك... أَوَ لَم تُشاهدي من قبل الحربَ على الشاشة؟...

هذا ما يحدثُ في الحاضرِ، عندنا، وليس في السينما أو التلفزيون؛ ولهذا طلبتُ إليكم أن تكونوا حَذِرين، بينما تُتابعُ مَعَكُم الحياةَ الطبيعية: والدُكم يذهبُ إلى عملِهِ كلَّ صباح، وأنتِ تذهبينَ مع إخوتِكِ إلى المدرسة، وأنا أهتمُّ بالبيتِ وبراحَتِكُم جميعًا، بما فيه راحة الحبيب زيكو في أثناء غيابك. لا أريدُك أن تَخافي، يا بنيَّتي.

في الملجأ

سمعتُ والدةَ منى وقبل أن تنقضيَ ساعةٌ على هذا الكلام، سمِعتُها تصرخُ بأعلى صوتِها وخوفِها، وذلك حين سَقَطَت قَذيفةٌ فوقَ سَطحِ العمارةِ المقابلة:

– أُركضوا إلى الملجأ... وبسرعة. هيّا.

لكنَّ منى تأخَّرت قليلًا لكي تَصحبَني:

– لن نتركَ زيكو وحدَه، قالت لأمِّها بإصرار...

ثمَّ راحت تجري خلفي، وأنا أهرب. لم أفهم ماذا تعني كلمةُ ملجأ. وأنا أُفَضِّلُ البقاءَ في غرفتي وفي كلِّ الأحوال.

لكنَّ منى أصرَّت على اصطحابي، وإذا بي أُصبحُ بين ذراعَيها، ولم تتركْ لي الخيار. وسمعتُها تهمِسُ في أذني بحنان:

– لن أدعَكَ وحيدًا. الملجأُ مكانٌ آمن. لا تَخَفْ يا زيكو.

***

هبطنا السلَّمَ إلى قاعِ البناية. كان الجيرانُ قد سبقونا. واتَّخذَت كلُّ عائلةٍ رُكنًا لجأت إليه. لاحَظتُ أنَّ الناسَ جميعَهم يحمِلونَ حاجات: البُسُط وحرامات الصوف، وأغطِية الأسِرَّة. وصناديق وزجاجات المياه، وعُلب الطعام. وإلى هذا، أحضرَ كلُّ فردٍ عُلْبةَ الإسعاف.

تملَّكَني الخوفُ من هذا المشهدِ غير المألوف. لكنَّ يدَ منى تُرَبِّتُ ظهري وساعدَها الحنونَ يغمرُني، وهذا ما جعلَني أتقبَّلُ الوضعَ الجديد.

جلسنا فوق بِساطٍ أحضرَته والدةُ منى، وقد جعلتِ الزاويةَ القريبةَ موضِعًا لسائرِ الحاجات.

كانت صرخاتُ الأطفالِ تختلطُ بِلَغوِ النساء، وأصواتِ الرجالِ. الجميعُ في حالةِ هياج. وكانوا يتكلَّمونَ عن الأخبار، وكُلُّها تؤكِّد أنَّ الليلةَ المقبلةَ سوفَ تكونُ حامية.

وسَمِعتُ منى تسألُ أمَّها عن معنى هذه الكلمة. فراحَتِ الأمُّ تشرحُ لها ولإخوتِها معنى الأخبار، وقالت إنَّ التَوقُّعاتِ ليست مُطَمئِنَة، لأنَّ القَصفَ سوف يَستَمِرُّ طوالَ الليل، ولكن!.. وهنا تَدَخَّلَ والدُ منى ليقول:

– هذا كلُّه لم يَعُدْ يُقلِقُنا ما دُمنا في أمان، هنا، في الملجأ. يا الله، أَخرِجوا ألعابَكم ولنبدأ.

كان ذلك مُهمًّا؛ فمثلما حَمَلَ الناسُ الحاجاتِ الضرورية، أَحضَروا كذلك وسائلَ التسلية، وهي تُساعدُ على قضاءِ الوقتِ بعيدًا عن التفكيرِ في الحربِ، وتُعطي الأولادَ فرصة السلوى.

لاحظتُ بين الجيران وجهًا لم يَسبِقْ لي أن شاهدتُهُ من قبل:

– جارُنا أبو سعيد، قالت منى، وهي تُشير إليه، فوقَ مِقعدِهِ المتحرِّك، ثمَّ تابعت:

– أبو سعيد لا يُغادِرُ المنزل. لكنَّهم الآن أَجبروه على الخروجِ لأنَّ بيتَه في الطابقِ السابع، وهذا يُضاعفُ الخَطَر عليه... إنَّه يعيشُ مع ابنتِهِ سُميَّة... أتعرفُها؟...

– مياو...

قلتُ لمنى إنّي أفهم ما تقولُه ولا يهمُّني إن كنت أعرفُ سُميَّة.

– مياو... مياو...

***

– أريدُ أن أُحَضِّرَ دروسي، غدًا لدينا امتحان.

قالت منى، وهي تَدعوني لأجلِسَ هادئًا، بقربِها.

– مياو...

كان جوابي مُختصَرًا. وجَلَستُ بهدوءٍ، أتأمَّلُها، ومن حين لآخر، أُلقي نظرةً على ما يدورُ في الملجأ من حولي.

وقع نظري على سيِّدةٍ تحوكُ الصوفَ وقد قَطَّبَت حاجبَيها، وصَبَّت اهتمامَها على العملِ بين يدَيها. وأبصَرتُ عمر، ابنَ الجيران المقيمين في الطابق

الأرضي، يقضِمُ رغيفًا حشاهُ بقطعِ الجُبْنِ، وكان يستندُ إلى كتفِ أمِّهِ المُنهَمِكَةِ بإرضاعِ أختِهِ الصغرى. كان بعضُ الرجالِ يُدَخِّنون السجائر، أو يُصغونَ إلى الأخبارِ من الراديو.

دنيا، بكل تنوُّعاتِها، انتقلَت دفعةً واحدةً إلى أرض الملجأ، المكانِ الوحيد الآمن. وفيما كنتُ أتأمَّلُ ما حولي، وأُفكِّرُ في أمورٍ كثيرة، سَمِعتُ انفجارًا ارتجَّتْ له الأرض، ثمَّ تَلاهُ انفجارٌ آخر، وسمعتُ صفّارةً حادَّةً، تتلوها انفجاراتٌ عدَّة.

دَبَّ الذعرُ في النفوس، وتوقَّفَ الناسُ عن الكلام والعَمل. وازدادَ صُراخُ الأطفال، فيما تُحاولُ أمَّهاتهم إسكاتَهم. وسمعتُ امرأةً تَصرُخُ آمرة:

– إخرَسوا... دعونا نَسمَعُ «الفلاشْ» لنَعْرِفَ أين سقطَت هذه القنابل.

مدَّت منى يَدَها تَتَلَمَّسُ بها وجهي ورأسي، وهي تُتمتم:

– لا تَخَفْ، يا زيكو. نحن في أمان. إنَّنا في الملجأ.

وكنت أحبُّ أن أُصَدِّقَها، لكن، وبالرغم منّي، استولى عليَّ خوف شديد زاده تأمُّلي في وجوه الناس من حولي، وقراءةُ إشاراتِ الرعبِ في عيونهم.

***

قَضينا ليلتنا تلك في الملجأ. وغفَونا برغم تواصُلِ القَصْفِ والتفجير.

كان وجودُ منى بقربي سَبَبَ طُمَأْنينة. وحين لاحَظتُ أنَّها نامَت أغمضتُ عينيَّ. ولمـّا استيقَظنا صباحًا، كان الهدوءُ يُخَيِّم على الأجواء، وَسَمِعتُ إحدى السيِّداتِ تُعلِّقُ على ذلك بقولها: تَعِبَ المقاتِلون، والآن جاءَ دورُهم ليناموا.

قالت منى وهي تَغمُزُني بساعدَيها:

– إنتهى القصف. والآن، هيّا بنا نصعد إلى البيت.

حين خَرَجنا من الملجأ أبصرتُ الأولادَ يَجرون في الشارعِ قربَ البنايةِ ويلتقِطون الرصاصَ الفارغَ ونَثْرَ الشظايا.

وقالت منى:

– لن نُقَلِّدَهُم، يا زيكو، لن نَلتَقِطَ الرصاصَ الفارغ، فأنا لا أحبُّ السلاحَ أفارِغًا كانَ أم ملآنَ.

العيش في شرنقة

غابَت منى عنّي طوال النهار. عَلِمتُ أنَّها ذَهَبَت إلى المدرسة، لكنّي بقيتُ قَلِقًا عليها؛ خصوصًا حين كنتُ أَسمَعُ أَصداءَ انفجارات. وتركَّزَ فكري على رجوعِها: فمتى تعودُ منى؟

وأمُّها كانت قلقةً مثلي. شَعَرتُ بذلك من هُدوئِها، ثمَّ من لجوئِها إلى حياكَةِ الصوف. نعم. سَمِعتُها مرَّةً تقولُ للجارة: – إنَّ حياكَةَ الصوفِ أَفضَلُ وسيلةٍ لطَردِ القلق.

يا ليتني أعرِفُ كيفَ يحوكونَ الصوف؟

بعد طولِ انتظارٍ سمعتُ هديرَ الأوتوكار... حاولتُ أن أَخرجَ إلى الشرفة، لكنَّ ذلك كان مستحيلًا، فقد بنى والدُ منى جدارًا كثيفًا من حجارةِ الإسمنت ليَحُولَ دون تَسَرُّبِ الشظايا إلى الداخل.

هذا ما قالته منى حين استقبلتها على الباب: – هذا ضَروريٌّ يا زيكو، كي نحمِيَ أنفسَنا من الشظايا والرصاص. وكان الجيرانُ قد بنَوا هم أيضًا جُدرانَ إسمنت، فوق شُرُفاتهم، وتغيَّرَت هيئة الحيِّ.

وشرحت لي منى ماذا يجري، فقالت:

– بِتْنا نعيشُ في شرنقة، يا زيكو، شرنقة حقيقية، لكنَّها أفضلُ من الإصابةِ برصاصةٍ أو شظية، ألا تُوافِقُني في الرأي؟

– مياوو...

أَجَبتُها، مُعلنًا موافقتي. لكنَّ ذلك يُفقدُني الكثيرَ من الحرِّية، ويُخفي منظرَ البحرِ والأشجار، ويحجُبُ الفضاء. حتّى العصافير، لم تَعُدْ تُزقزقُ فَوقَ أعضانِ

الشجر.

– العصافيرُ خافت، ورحلت، قالت والدةُ منى، ثمَّ تابعت: راحت تَبحثُ لها عن مكانٍ هادئٍ، لا يَصِلُه خَطَرُ الموت...

وقاطعَتها منى بسؤالها:

– ألِهذا رَحَلَ الجيرانُ في البناء المجاور؟

فَرَدَّت أُمُّها:

– نعم. عندهُم بيتٌ آمن في الجَبَل. حَمَلوا أَمتِعَتَهم، وصعِدوا إلى حيثُ الهدوءُ لا يزال مخيِّمًا.

وسألتها منى:

– لماذا لا نصعدُ نحن مثلهم إلى الجَبَل؟

فَطمأَنَتْها أمُّها:

– سنذهبُ، بعد أيّامٍ قليلة، وعندما تُقفِلُ المدرسةُ أبوابَها، لا أريدُكُم أن تخسَروا سنَتَكُمُ المدرسية.

***

كانت منى في المدرسةِ، حين فاجأَنا قَصفٌ شديدٌ تَرَكَّزَ على الحيِّ. خِفتُ كثيرًا، وكُنتُ أشعرُ بأنَّ خوفي على منى أضعافُ خوفي على نفسي. كيف سَتَصِل؟ وهل يمكنُ أن يتحرَّكَ الأُوتوكار؟

كنتُ منشغلًا بهذه الأسئلة حين سَمِعتُ انفجارًا قويًّا بالقربِ من البيتِ. هَرَعتُ إلى خزانة الملابِسِ واختبأتُ بين أكوامِ الثياب، وبَقيتُ مُختبئًا، حتّى بعدما هدأَ القصف، وخرجَ الناسُ إلى الشارع. وعندما سَمِعتُ جَرَسَ البابِ يدقُّ نفضتُ عنّي الخوفَ، وهَرعتُ إلى الباب. كانت منى هناك وسمعتُ صوتَها يُناديني: – زيكو... زيكو؟ أين أنت؟

لماذا تبكي صديقتي؟

لم أفهَمْ لماذا بَكَت منى في ذلك الصباح: فقد كان الجَوُّ هادئًا، والشمسُ مُشرِقَةً، والناسُ يَملأون الشارع. بل كانَت هناك زَحمَةُ سَيْرٍ، وهذا كلُّه يَعني أنَّ القصف توقَّفَ، فلماذا تَبكي منى؟

وقبل أن أتمكَّنَ من سؤالِها سَمِعتُ صوتَ والدِها يُنادي:

– هيّا بنا، تأخَّرنا على المطار.

قال ذلك، وهو يَحمِلُ الحقيبةَ الكبيرة، ويَهبِطُ السُلَّم. ثمَّ أَبصَرْتُ نبيل، شقيقَ منى، يَحمِلُ حقيبةً أخرى، ويُوَدِّع أمَّه وأختَه، قبل أن يتبَعَ والدَه:

– نبيل مُسافِرٌ إلى أميركا، يا زيكو. وَصَلَهُ القبول في الجامعة وهو ذاهبٌ ليُنهي تَخَصُّصَهُ في الهندسة. قالت ذلك، وهي تَمسَحُ دموعَها بيدٍ، ويدُها الثانية تُربِّتُ عنقي:

– سوف نفتقِدُهُ كثيرًا. لكنَّ أبي يقول: هذا أَفضَلُ لِمُستَقبلِهِ. ثمَّ إنَّ السَفَرَ يُبعِدُهُ عن مَوقعِ الخَطَر... أَفَهِمتَ يا زيكو؟

حين زارنا الخطر

الخطر. إنَّها الكلمةُ التي يُرَدِّدُها كلُّ مَن حولي. هم دائمًا يَتَحَدَّثون عن الخطر:

– إبعَدي، يا منى، عن الشبّاك. هناك خَطَر. بدأ القَصفُ، لا تَنْزِلي إلى الحديقة، خَطَر. في المدرسةِ، الزَمي الغُرَفَ الداخليةَ، لتَتَجنَّبي الخطر.

لكنَّ «الخَطَرَ» زارنا تلك الليلة، في داخلِ البيت، وكادَ يُلامِسُ جِلدي، وهذا ما جرى:

فقد زارنا سعد، ذلك الشابُّ العاملُ في المصنع، عند والدِ منى. وكان سعد شابًّا لطيفًا؛ قال لمنى: إنه يُحِبُّ القِطَط، وسألها:

– هل يؤذي زيكو؟ هل هو شَرِسُ الطباعِ أم إنَّه عاقلٌ وبِوِسعي مُداعَبته؟

قالت منى:

– زيكو مُهَذَّبٌ، لكن إذا آذيتَهُ، فسوف يُدافعُ عن نفسه.

إنحنى سعد، وراحَ يُداعبُ وجهي. هَرَبتُ منه، لا بسبب الأذى بل لأنّي لم أكُنْ متعوِّدًا على مداعبته. وأذكُرُ أنّي اختبأت تحتَ المَكتَبَةِ، فَلحِقَني وهو يُنادي:

– زيكو... زيكو، اخرُجْ، لا تَخَفْ. ثمَّ أبصرتُه من مَخبأي وهو ينحني، كي يَلمِسَني، ولكن، وقبل أن تبلُغَني أصابعُه، دَوَّى انفجارٌ رهيبٌ، وقَفَ له وبري، وكَشَّرتُ عن أنيابي بالرغم منّي. التَصَقتُ بالزاويةِ، وجَمَدتُ؛ إنَّما أرهَفتُ السَمْعَ، لكي أعلمَ ماذا يجري من حَولي، خصوصًا حين سمعتُ والدةَ منى تصرخ:

– أُصيبَ، سعد. أُصيب.

كان سعد، مثلُه مثلُ الكثيرِ من الشبّان، يُخفي مسدَّسًا في خصره لكي يُدافع بهِ عن نفسه عند الحاجة. ولمـّا انحنى، انطَلَقَتِ الرصاصةُ، واخترقَت خَصرَهُ، لتنفذَ من الظهر:

– أُطلبوا سيارةَ إسعاف، على عَجَل.

كانت منى تصرخُ مرعوبة، وَتَجَمَّعَ الجيران، وبَعضُهم تعاونَ على حَمْل سعدٍ إلى أقربِ سيّارة، ثمَّ إلى أقرب مستشفى.

بقيتُ في مَخبأي حتّى هَدَأَتِ الحركةُ من حولي. ثمَّ سَمِعتُ صوتَ منى يُناديني:

– زيكو... أين أنت يا زيكو؟

لم أستَجِبْ لنداءِ منى، وبَقِيتُ في مخبأي طوالَ الليل، وحتّى صباحِ اليومِ التالي. فقد كان الانفجارُ هذه المرَّة قريبًا، حتّى كادَ يلامِسُ جسمي؛ وفَهِمتُ مَعنى الخوف، وماذا تعني كلمة «خطر».

***

جَلَستُ في ركنٍ من الغرفة، أَرتَعِدُ من الخوف. الخوفُ الحقيقي تَسَرَّبَ إلى داخلي، ولم يُفارِقْني إلّا بعدما اقتربَت منّي منى، وغَمَرَتني وهي تقول:

– تعالَ زيكو... تعالَ. يكفيك هربًا. سعد بخير، لا تَخَفْ.

وكان سعد حقًّا محظوظًا، إذ إنَّ الرصاصةَ التي اخترقَت بطنَه ونفذت من ظهرِه، لم تُصِبْ سوى جزءٍ صغيرٍ من الأمعاء تمكَّن الطبيبُ الجرّاحُ من إصلاحِهِ، وإعادةِ الحياةِ الطبيعية إلى الشاب.

بعد بِضعةِ أيّامٍ خَرَجَ سعد من المُستشفى، وجاءَ لِيَزورَنا. كنتُ أَتأمَّلُه من زاويةِ الصالون؛ ولمـّا لاحَظَني اقترب منّي، وراحَ يتلمَّسُ ظهري، ويُتَمْتِم:

– إشْتَقْنا، يا زيكو. إشْتَقْنا.

لكنَّ كلامَهُ اللطيفَ ظلَّ عاجزًا عن مَحْوِ الخوفِ نهائيًّا من كَياني، كما أنَّ رِقَّةَ مُعامَلَتِهِ لم تُنْسِني الحادثَ، ولا قَوِيَتْ على إزالةِ الألمِ من أحشائي كُلَّما سمِعتُ قنبلةً تنفجِرُ في الجوار.

المشهد من النافذة

سُدَّت جميعُ نوافذِ البيتِ وبَقِيَتْ نافذةٌ واحدةٌ أستطيع أن أُطِلَّ منها على الشارع؛ وهي نافِذةُ المطبخ. فإنّ والدَ منى، والذي أقامَ جدارًا عازلًا أمامَ كلِّ بابٍ ونافذة، لم يتمكَّنْ من إقامةِ جدارٍ مماثلٍ أمامَ تلك النافذة، إذ كانت تُطِلُّ على الشارعِ الأقلِّ تعرُّضًا للخطر، وليس أمامَها شُرفَةٌ أو حافَّةٌ تَتَّسِعُ للبناء.

صحيحٌ أنَّ هذا الشارعَ لا يُواجِهُ مناطقَ القصف، لكنَّ المَشاهِدَ فيه تبدَّلت؛ وبينما كانت في السابقِ تُسَلِّيني، خصوصًا حين كان أولادُ الحيِّ يُحَوِّلونَ مساحَةً من الشارعِ إلى ملعبٍ للكُرَة، ويَقفِزونَ ويَمرَحون فوق الرصيف، فقد أصبحتِ الآن مناظرَ مختلفة، يظهرُ فيها رجالٌ غرباءُ عن الحيِّ، يرتدون الثيابَ المُرقَّطَة، ويحملونَ فوقَ أكتافِهِم أو في أيديهم ما يُشبِه العُصيَّ، وسمِعتُ الناسَ من حَولي يُسَمّون تلك العُصيّ أسلِحة. وكانت الأسلحةُ تُخيفُني كثيرًا؛ لكنَّ خوفيَ الأكبر كان نتيجةَ نظراتِهم الحادَّةِ والشرسَة إليَّ، وإلى كلِّ مَن أبصروه حولَهم، حتّى أنَّهم كانوا مُستَعدّين لإطلاقِ النارِ في أيَّةِ لحظة. كنتُ أُقدِّرُ ذلك من حَرَكاتِهم العَصَبِيَّةِ المُتَوَتِّرة، ولهجةِ صَرخاتِهم القاسيةِ والتي توحي بالعُنفِ وتُهدِّدُ بالأذِيَّة. وكَم كنتُ أتمنّى لو تُخبرني منى: مَن هُم أولئكَ الرجال؟ من أين جاؤوا؟ ولماذا هم غاضبون؟ ولماذا طردوا الأطفالَ وأخذوا مكانهم؟ وهل سَيَمْكُثون لفترةٍ، ثمَّ يرحلون، أم أنَّهم باقون هنا... باقون؟...

ولاحَظتُ تغييرًا يَحدُثُ داخلَ البيت، إذ لم يَعُدْ يطرُقُ البابَ أصدقاءُ العائلة، في النهار، وفي الليل. وإذا صَدَفَ أنَّ أحدَهم مرَّ بهم، فهو لا يَمْكُثُ سوى بضعِ دقائقَ ثمَّ يرجع إلى حيث أتى.

وكانت والدةُ منى تفرحُ بزيارة صديقاتِها، فتجلسُ مَعَهُنَّ بعدما تفرغُ من عملِها، ويتبادَلْنَ الأحاديثَ والضحِك. أمّا الآن، فهي تَقضي معظمَ ساعاتِ الفراغِ في رُكنٍ من الغرفةِ الداخليَّةِ تَحوكُ الصوف، وتُصغي إلى نشراتِ الأخبارِ يَبُثُّها الراديو. وإذا تَحَدَّثَت فهي تَهمِسُ كلامَها هَمْسًا، وكأنَّها فَقَدَتِ القُدرَةَ على رفْعِ الصوتِ عاليًا.

بَردعتي الأولى

ماما... اصنعي لزيكو بَرْدَعَةً من صوف. قَرُبَ الشتاء، وزيكو بِلا مِعطَف.

سَمِعْتُ منى تَطْلُبُ ذلك من أمِّها، حالما فرغَتِ الأمُّ من حياكةِ معطفها.

فَرِحتُ كثيرًا لاهتمامِها بي، لكنّي شِئتُ أن أقولَ لها: إنَّ لجِنسِ القِطَطِ فَرْوَتَهُ الطبيعية، ولذا لا حاجةَ بي إلى فَرْوَةِ صوفٍ أو بَردَعة. وسَبَقَتني والدتُها إلى القول: – تِكْرَمْ عينك وعينْ زيكو. غدًا، تكون بَردَعَتُهُ جاهزة. عندي خيوطٌ من ألوانٍ عدَّة، وسوف أَمزُجُها، من خلالِ الحياكَةِ، وتُصبِحُ أجمَلَ بَردعة. يَرتَديها زيكو، ويَفرحُ بها.

راحَتْ منى تُقَبِّلُ أمَّها، وتَقفِزُ حولَها، تكاد تطيرُ من شدَّةِ الفَرَح: – شكرًا... شكرًا يا ماما.

أُحِبُّكِ كثيرًا، يا أحلى ماما... وزيكو، سوف يَفرَحُ كثيرًا، كثيرًا.

كنتُ سعيدًا بما أَسمَعُ. وانْتَظَرتُ الغدَ بتَشوُّقٍ كبير، لأرتدِيَ البَردَعَةَ، أوَّلَ ثوبٍ غريبٍ عن فَروَتي الطبيعية. ولم تُخْلِفِ السيّدةُ الكبيرةُ بالوعد. حالما خَرَجتُ من غُرفَتي، وجدتُها تَنتَظِرُني، وبين يدَيها البَردَعةُ الجديدة: – تعالْ، دعْني أقِس إذا كانتْ على قَدّك يا زيكو. تعال.

امتَثَلتُ لأوامِرِها. ووقفتُ أمامَها، هادئًا. بينما راحت يداها تُلبسانني أوَّل ثَوبٍ عَهِدتُه في حياتي؛ ولمّا انتَهَت من شدِّ السيورِ على الجانبَين، نادت منى بصوتٍ يَقطُرُ مَرَحًا وعُذوبة: – تعالَي، عجِّلي، يا منى، شوفي صاحِبَك، وقولي له: مبروك.

وكانت فَرحَةُ منى أقوى من أيِّ كلام: حَمَلَتني، وراحَت تُقَبِّلُ رأسي، وهي تُزَغرِدُ: – مَبْروكْ، يا زَكْزيك... ألف مبروك.

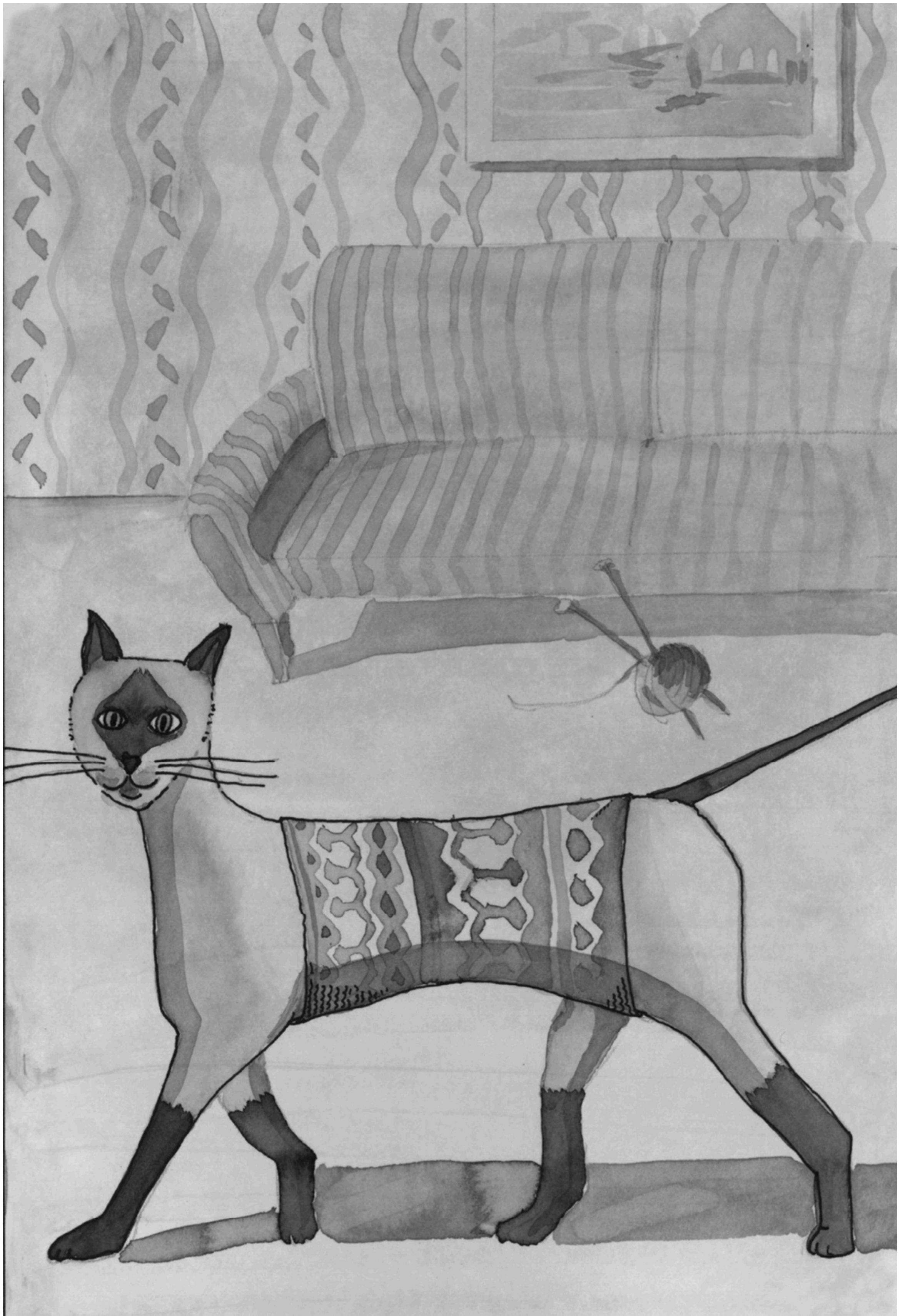

إنَّهم يَحفِرون الخنادِق

لم تَذْهَبْ منى إلى المدرسةِ في صباحِ اليومِ التالي. أعلنَ أبوها أنَّ الحالةَ الأمنيةَ لا تسمحُ بالخروجِ من البيتِ في ذلك النهار، كما أنَّ المدرسةَ أَعلنَت عن طريقِ الإذاعةِ والتلفزيونِ بأنَّها سَتُقفِلُ أبوابَها طوالَ ذلك النهار.

– لازِمْ نْقوم بِعَمَلٍ يُسَلّينا، يا زيكو، قالتْ منى وهي تَحْمِلُني بين ذراعَيها وترفعُني عن الأرض؛ ثمَّ تابعَت، وهي تَنظُرُ إلى الخارج من خلالِ نافذةِ المطبخ:

– أُنظُرْ، أُنظُرْ يا زيكو. هل تَرى ما أَراهُ أنا في الشارع؟

– مياو... مياو... أجَبتُها فتابَعَت:

– يا ربّ، ماذا يفعلون؟...

– مياوو!؟

قلتُ ذلك وقَفَزتُ من بين يَدَيها لأَقِفَ على حافَّةِ النافذةِ أتأمَّلُ ما يَحدثُ في الخارج، وهذا ما رأيتُ: أبصَرتُ الجنودَ يَحفِرون خنادقَ في الأرض، بمحاذاةِ البناية. وعندما ينتهي واحدُهُم من حُفرةٍ يَنتقِلُ إلى غيرها. وأبصرتُ الترابَ المُستَخرجَ من باطِنِ الحُفرةِ، يتكوَّمُ تِلالًا على الجانبَين، ويَتحوَّلُ إلى جدارٍ كثيف. وكان بَعضُ الجنودِ يُفكِّكون إطاراتٍ من الشريطِ الشائكِ يُسيِّجون به المكانَ فيتحوَّلُ بفعلِ ذلك إلى مُعَسكرٍ مُطَوَّقٍ من كلِّ الجهات.

– إنَّهم يقومون بعمليةِ تحصينٍ ضِدَّ الخَطَر، وهذه إشارةٌ عاطلة.

هذا ما سَمِعْتُهُ من والدةِ منى، بينما كانت مُنْهَمِكَةً بإعدادِ حَقيبةِ الإسعافِ والبطّانيات، وسَلَّةِ الطعام. وهي العدَّةُ التي تُرافقنا إلى الملجإ. وإعدادُها يعني

تَوقُّعَ القصفِ الشديد:

– الجنودُ مثلنا، خائفون، وربما أكثر منّا، لأنَّهم يتعرّضونَ للخطرِ وليسَتْ لهم ملاجئُ تَحْميهم. لا تَظُنّي يا منى أنّ الجنديَّ لا يَخاف. وهو بشَرٌ، من لحمٍ ودم، لكنَّ واجبَهُ يدعوه إلى الصمود على الجبهة. هذا ما قالَتهُ والدة منى.

– ولماذا لا يَحْتَمونَ في ملجأ البناية؟

سألَتها منى، باهتمامٍ، فردَّتِ الوالدة:

– المَلجأُ مُخَصَّصٌ لأهلِ العَمَارَةِ، وبالكاد يَتَّسِعُ لعَدَدِهِم، فأين سَيُقيمُ الجنود؟ ثمَّ هذا ليس مكانَهُم. تُلاحظين، هؤلاءِ ليسوا من جنودِ لبنان، بل من قُوّاتِ الطوارئ، وهم هنا في مُهِمَّةِ الفصلِ بين المتقاتلين.

وما كادتِ الوالدةُ تُنْهي كلامَها، حتّى دوّى انفجارٌ قريبٌ، فهَرَعَت منى إليَّ، وحَمَلَتني وهي تَركُضُ:

– إلى الملجأ... جميعنا إلى الملجأ.

وما كِدْنا ندخلُ على نورِ الشمعة، حتّى دوّى انفجارٌ آخرُ أعنفُ من الانفجارِ الأوَّل، وسمِعنا تَساقُطَ الزجاجِ، وتَحَطُّمَ الواجهاتِ والأبواب.

وكان والدُ منى خارجَ البيتِ، وَسَمِعتُ صديقتي تسألُ أمَّها بقلق:

– أبي... أين أبي؟

فَطَمأَنَتها الوالدةُ لتُخفِّفَ قَلَقَها:

– أبوكِ يعرفُ كيفَ يتصَرَّفُ وهو يُصغي إلى أخبارِ الراديو. لا تَقلَقي.

واعْتَرَضَت منى:

– ربَّما كان القَصْفُ هنا، في هذا الحيّ، فكيف سَيَعْرِف؟ غَمَرَتها أمُّها محاوِلَةً تهدئَتها:

– يبدو أنَّ التفجير يُطاول جميعَ المناطق. لكنَّ ذلك لن يَدومَ طويلًا وسوفَ يَتَوَقَّفُ فجأةً، مثلما بدأ.

***

وكانت تلك الليلةُ والليالي الثلاثُ التالية، أَعْنَفَ أيّامِ القصف. مَكَثْنا في الملجأ مع الجيرانِ وأولادِهم. وانقطعَ التيّارُ الكهربائي. فاستُخدِمَتِ الشموعُ ومَصابيحُ الغازِ للإنارة. وكان الأطفالُ خائفين. صُراخُهُم يكادُ لا يَنقَطِع. يَملأُ الجوَّ ضجيجًا ويَزيدُ من تَذَمُّرِ الأمَّهاتِ وتهديدِ الآباء. وكنّا نشعرُ بأنَّ الشوارعَ، خارجَ

الملجأ، تحوَّلَت إلى أتونٍ من اللهب، وعَلَت صيحاتُ جنودِ الحراسةِ بقربِنا، وهم يَتنادَونَ لإطفاءِ الحريق.

كانت منى قَلِقَةً على الجنود. وسألت أمَّها إذا كانوا في أمانٍ. وهل أنَّ الخنادقَ التي شاهدناهم يحفرونها قادِرَةٌ على حمايتِهم. وردَّت الوالدةُ بهدوء:

– لا تقلقي يا عزيزتي. ولا يَنْشَغِلْ بالُكِ على الجنود، فَهُم يَفْهَمون الحربَ ومفاجآتِها أكثَرَ منّا جميعًا. لا تخافي يا منى.

وَشَعَرتُ بأنَّ والدةَ منى كانت خائفة، والكلماتِ تخرجُ من بين شفتَيها راجِفَةً، لكنَّها ظلَّت تُخَبِّئُ خوفَها وراءَ الكلمات.

عودة الوالد

إنقضى يومان على وجودِنا في الملجأ. وفَجأةً وَصَلَ والدُ منى إلى الملجأ من دون أن يُحاولَ فتحَ بابِ البيت. بدا شاحبَ الوجه، مُرهَقًا، وقد نما شعرُ ذقنِهِ من دونِ أن يَحلِقَه مثلما هي عادتُهُ كلَّ صباح. وحتّى ملابِسُه كانت مُتَّسِخةً وغيرَ مَكويَّة.

هُرِعَت منى صوبه وعانقَته وهي تُردِّد:

– بابا... بابا...

ثمَّ تَبِعَها إخوتُها، وأُمُّها كلُّ واحد بِدَورِهِ. فعانقَهُم بحرارةٍ وهو يُرَدِّد:

– الحمدُ لله على سلامتكم. لم أُصدِّقْ أنّي سأراكُم بخير.

وردَّ الجميع بصوت واحد:

– حمدًا لله ألفَ مرّة على عودتِك سالمًا.

كنتُ أتأمَّلُ هذا المشهدَ وأشعُرُ بالدموعِ تكادُ تسيلُ من عينيَّ. وقد سالَت، فعلًا، وبَكَيْتُ بكاءً حقيقيًّا حين غَمَرني والد منى بين ذراعَيه وراحَ يَهمِسُ في أذني بمحبَّة، وحنان:

– أنا سعيدٌ لرؤيتك سالمًا يا زيكو العزيز.

ومع عودةِ الوالد، عادَ شيءٌ من الهدوء إلى الحَيِّ، فدعانا جميعًا لنغتنمَ تلك الفُرصَةَ ونَصعَدَ إلى البيت، لكي نَستَحِمَّ، وَتُبَدَّلَ بالثيابِ القذرةِ ثيابٌ نظيفة.

وكان أوَّلَ ما فعله كلُّ واحدٍ من أفراد الأسرة، لدى دخوله البيت، تَفَقُّدُ الغرفِ، والحاجاتِ، للتأكُّدِ من أنَّ القصفَ لم يَترُكْ أثرًا.

– بلى... بلى، هناكَ إصابة...

صَرَخَ باسم، الشقيق الأصغر لمنى ثمَّ تابع:

– قَذيفةٌ أصابتِ الشُرفةَ وحطَّمَت أصيص الغَرْسِ وأَحرَقَتِ النباتِ الجميلة.

سارعَ الجميعُ إلى الشرفة، ووقفوا يتأمَّلون المَشهَدَ، غيرَ مُصَدّقين أنَّ الغُرَفَ الداخلية لم تتأثَّر. فقد كانتِ الضربةُ قويةً لكنَّ آثارَها كانت محدودةً بسببِ تَفَجُّرِها على الجدارِ الخارجي للشرفة. هكذا شَرَح والدُ منى، ثمَّ حَذَّرَنا جميعًا، لنبتعدَ فلا نَمَسَّ الشظايا خَشْيَةَ أن تتفجَّرَ بين أيدينا.

حين جَلَسَتِ الأسرةُ إلى المائدةِ وقتَ الغداء، راحَ الأبُ يتحدَّثُ عن أحداثِ الأيّام التي عاشَها بعيدًا عن عائلته؛ فأخبرَنا كيف أنَّ القَصفَ المُفاجئ احتَجَزَهُ مع اثنَين من الموظَّفين في مكاتِبِهم، وقد عاشَ الثلاثةُ في مستَودَعِ المكتب، وكلُّ ما استطاعوا الحصولَ عليه، الماء، وثلاث حبّاتِ برتقال، ورغيفان من الخبز. لكنَّ الماءَ هو العنصرُ الأهمُّ...

وقال أيضًا: إنَّ خُروجَهُ كان مُجازَفَةً، ولم يلتقِ في طريقه سوى عددٍ قليلٍ من السيارات، وكان أصحابُ تلك السيارات، مِثلَهُ، مُضطرّينَ إلى العودةِ إلى منازلهم، مُغتَنِمينَ فترةَ الهدوءِ النسبيِّ.

***

كنّا نحن جميعًا مُتعبينَ من البَقاءِ في الملجأ مُدَّةَ ثلاثة أيام، في زحمة الأطفالِ وصراخِهِم، والظلامِ الغامرِ، والجوِّ الذي يُسبِّب ضيقَ النفس، إذ لم تكن هنالك نوافِذُ تُسَرِّبُ الهواءَ النقيَّ من الخارج.

في الساعات الأولى، وجَدتُهُ صعبًا عليَّ أن أفتحَ عينيَّ على طبيعتِهما، لأنَّ نورَ النهار والشمسَ المشرقةَ باتا يُسبِّبان ليَ الضيق. وبرغم ذلك وقفتُ أمامَ النافذةِ المُطلَّةِ على الجهةِ الشمالية، وحيث ما زال في إمكاني مشاهدةُ المارَّة. وقد لاحظتُ وجهًا جديدًا لذلك الشارع، مُغطًّى ببقايا الشظايا وحُطامِ الزجاجِ من الأبنية العالية في الجوار. أمّا واجهةُ البناءِ المقابل فقد كانت مختلفةً عن صورتِها المألوفة إذْ لم تَسلَمْ شُرفَةٌ أو نافِذَةٌ من آثارِ القصف.

لكنَّ الجارةَ التي تُقيمُ في الطابقِ الرابع من تلك البناية، جاءَت لتزورَ والدةَ منى، وتُطَمئِنَها إلى سلامَةِ كلِّ مَن يُقيمُ في تلك العمارة، لأنَّ الجميعَ هَبَطوا إلى الملجأ في الوقت المناسب.

قوّات الطوارئ

عاد الجنودُ إلى حَفرِ الخنادقِ في الحديقةِ المجاورةِ للبيت. وقفتُ أمامَ النافذة أتأمَّلُهُم: كانوا يختلفونَ عن الناسِ في الجوار، بلَونِهِم الأشقر، ولغتِهِم الغريبة. قالَت منى: – هؤلاء جنودٌ حقيقيون يا زيكو، لكنَّهم لا يُحاربون، فهم هنا ليَفصِلوا بين المقاتلين. يُسمّونَهُم قوّاتِ الطوارئ... هل فَهِمتَ معنى ما أقول؟...

– مياو...

رَدَدْتُ على صديقتي متظاهرًا بأنّي أفهم. لكنّي في الحقيقةِ، لم أفهَمْ كَلِمَةً ممّا قالَتهُ وكلُّ ما همَّني أنَّهم كانوا يقومونَ بحركةٍ غيرِ القتال، وأنا أتسلّى بمُراقَبَتِهم. وربَّما كانوا الوحيدين الذين تحرَّكوا بسرعةٍ بعدَ وَقفِ القَصفِ. وهم الآن يَستَخدِمون الحفّارات. وأصواتُها تملأُ المكانَ، وتَحجُبُ عن السَمْعِ صَرخاتِ الأطفال الذين خرجوا إلى ساحاتِ العمارات، يرقصون أو يلعبون فرحين بحُرِّيتِهم وفَرِحين أكثرَ، بخُروجهِم من الملاجئ. سألَت منى أمَّها: – لماذا رَجَعَ الجنودُ يا ماما؟

وَرَدَّتِ الأمُّ بنبرةٍ غيرِ أكيدة: – ربَّما ليُوقِفوا القتال. المُهِمُّ أنَّهم لا يُقاتِلون، وهذه إشارةٌ جيِّدة.

وعادَت منى تسأل:

– يعني، بوجودِهم، لن يكون هناك قَصف؟

وأجابت أُمُّها:

– ربَّما، علينا أن ننتظرَ، لنرى.

اقتربَت منى من النافذةِ حيثُ كنتُ واقفًا، أتأمَّل الخارجَ وأرصُدُ كلَّ حَرَكة. ومدَّت يدَها تُربِّتُ ظهري وتَتَوَدَّدُ إليَّ: – يا محتال، يا زيكو... أنتَ تَرصُدُ الأحداث... الأفضل أن أوَجِّه أسئلتي إليكَ أنتَ بعد اليوم؛ فأنتَ واقفٌ فوقَ بُرجِ المُراقبة، وترى كيف تُصاغُ الأحداثُ على الطبيعة.

– مياو...

قلتُ، مجيبًا، وأنا أُمَرِّغُ وجهي بين راحتَيها: – مياو... مياو... مياو...

القِطَّةُ الشارِدَة

– ماما، ماما، أسرعي وانظري...

كان هذا صوتَ منى. وقد أيقظَني من غفوَتي في صباحِ اليوم التالي. قَفَزتُ من السريرِ لأنظرَ ماذا يجري، فرأيتُ منى واقفةً في المدخل الرئيس للبيت، وبين يدَيها قطَّةٌ صغيرةٌ سوداءُ اللون:

– وجدتُها هنا، وكانت تَمُوءُ وترتجِفُ من البرد والجوع... أعطيني الحليب يا ماما لأُطعِمَها.

قالت السيِّدةُ الكبيرةُ بنبرةٍ جافَّة:

– أَنزِليها من بين ذراعَيك؛ إنَّها قِطَّةُ شارعٍ، وقد تنقلُ إليك الجراثيمَ وشتّى الأمراض.

واعتَرضَت منى:

– لكنَّها صغيرةٌ، يا ماما. صغيرةٌ، ومُشَرَّدة. أريدُ أن أُعطيَها بَعضَ الطعامِ لِتَقْوى.

فردَّت أمُّها باللهجةِ الأولى نفسها:

– أبقيها خارجَ البيت، وإذا شئتِ إطعامَها فاحملِي إليها بَعضَ الطعامِ. لا تُدخِليها البيت، ولا تَدَعيها تَقتَرِبُ من زيكو.

لم تعترِضْ منى على كلامِ أمِّها إذْ بَدا مُقنِعًا. ولم تَلبَثْ أن أحضرَت للقطَّةِ المسكينة طَبَقًا فيه الحليبُ وبعضُ قِطَعِ الخُبز. وما كادتِ القطَّةُ تَشُمُّ رائحةَ الطعام، وتُبصِرُ القَصْعَةَ أمامَها مُمتلئةً به حتّى هَجَمَت وراحَت تَلعَقُ الحليبَ، وتَقضِمُ قِطَعَ الخُبزِ بشهيَّةٍ تَفضَحُ الجوعَ الذي منه تُعاني.

وكانت منى، في خلال ذلك، تتأمَّلُها بفرحٍ ومتعة. وكنتُ أَشارِكُها مَشاعِرَها، فيما يُخالجني شعورٌ غريب، هو مزيجٌ من الحُزْنِ والحنين، إذ إنَّ حضورَ تلك القطَّةِ الصغيرةِ أعادَ إلى نفسي أُنسًا كان قد فارقها مُذْ خرجْتُ من حِضْنِ العائلة.

بعد تلكَ الوجبة، باتَتِ القِطَّةُ زبونًا دائمَ الحضور. وكانَت تجيء ثلاثَ مرّات كلَّ يومٍ، فتقفُ قربَ البابِ وتُنادي:

– مياو... مياو...

وتَفْهَمُ منى معنى نِدائِها، فَتَخْرُجُ إليها حاملةً طبقَ الطعام وكأسَ ماء. وبعد أن تَطْمَئِنَّ إلى شَبعِها، تُداعبُها لبعضِ الوقت ومن بعيد، إما بِكُرَةٍ أو «بِكَبْكوبِ» خيطان من سلّة الوالدة.

حتّى إذا انتهى اللعب، تُودّعُها وتعودُ إليَّ فتغمرُني، وتُقَبِّلُ رأسي وهي تُتَمْتِم:

– لماذا أنتَ هكذا، صامتٌ، لماذا يا زيكو؟...

– مياو...

– نعم، تقولُ منى، وهي تَغْمُرُني وتَشُدّ: لا تُصَدِّقْ أنَّ أحدًا يأخُذُ مكانَكَ في العائلَة... سوف تبقى أعزَّ صديقٍ، يا زيكو.

هكذا هي الحرب

عندما سَمِعتُ انفجار القذيفة الأولى صباح ذلك اليوم، عرفتُ أنَّ والدةَ منى لا تَعرِفُ الكثيرَ عن شؤونِ الحرب.

كانتْ أصداءُ الانفجاراتِ تأتي من كلِّ صوب. قذائفُ قويَّة، تَئِزُّ فوقَ رؤوسنا، ثمَّ تَنطَلِقُ لتنفجرَ في مكان آخر. أحيانًا كنّا نسمعُ أصداءَ الانفجارِ قبلَ أن يَبلُغَنا أزيزُها.

– إلى الملجأ... بسرعة. كان ذلك صوتَ والدِ منى. وبَقِيَت أمُّها صامِتَة. كانَت تروحُ وتَجيءُ في أرجاءِ البيت، تَجمَعُ الحاجاتِ اللازمةَ للبقاء في الملجأ، ولا تقولُ كلمة.

في خلالِ بِضْعِ دقائق، كنّا جميعًا في الملجأ، نحن، والجيران. الكبار والصغار. وكان الأطفالُ يَصرُخون، كالعادة. وقد نزل الكثيرون منهم بثيابِ النوم. كانوا يَفرُكونَ أَعيُنَهم، أو يَبكون. ويمتزجُ الصراخُ بدَوِيِّ القذائفِ وضجيجِ الجماعة، فَيَخلُقُ هذا المزيجُ جوًّا من الرعبِ والقَلَق.

لكنَّ ذراعَ منى حولَ جِسمي، وصوتَها الهامسَ في أُذُني بلطف، جعلاني أبقى محتفظًا بشجاعتي ولا أفقِدُ أعصابي مثلما يَحدُثُ للناس في حالاتٍ مشابهة. وصوتُها المُطَمْئِنُ كان أشبهَ بالمَهدِ الناعمِ، يَحتَضِنُ كياني.

يُطَمئِنُني:

– لا تَخَفْ، يا زيكو. لن يُصيبَنا الأذى. نحن الآن في أمان. نحن في الملجأ.

***

حين خَرَجْنا من الملجأ، عَصْرَ ذلك اليوم، كان الهدوءُ يُخَيِّمُ على الحيِّ، بعد نهارٍ شديدِ العَصْفِ والقَصْف. إنَّما أبصرتُ شيئًا جديدًا، لم نَعْتَدْ رؤيتَهُ في الحيِّ: كان هناك رجالٌ يرتدون ثيابًا مُرَقَّطَة، ويَحمِلونَ سلاحَهُم. وكان معهم أولادٌ لا يجاوزون العاشِرةَ من العمر، وكانوا هُمُ أيضًا يَرتدون الثيابَ المُرَقَّطة مثلَ الرجالِ الكبار:

– إنّهم مقاتلون، قال والدُ منى، ثمَّ أضاف:

– علينا أن نُغادرَ الحيَّ بسرعة. لقد وَصَلَ الخَطَرُ إلى حدودِنا. علينا أن نُبعِدَ الصغارَ عن موقعِ الخطر.

– إلى أين نَذهب؟ سألتْ والدةُ منى، بصوتٍ مُرتَعِش. إلى أين نذهب؟

وقال الأب:

– إلى أيِّ مكانٍ يُؤمِّنُ السلامَة لكُم جميعًا. هيَّا بنا. أحضِروا أمتِعَتَكُمُ الضرورية، وسوفَ أُخرِجُ السيارة من الكاراج. أخشى أن يَتَحَوَّلَ الشارعُ أمامَنا إلى ساحةِ قتال. هيّا، أسْرعوا.

***

لكنَّ الحربَ كانَت أسرَعَ منّا جميعًا، إذ ما كادَ الوالدُ يَنطِقُ بهذه الكلمات، حتّى راحَتِ القنابلُ تَهْطِلُ كالمطَر، ومن كلِّ صَوْب. وبدلًا من أن ننتقلَ بالسيارة إلى مكانٍ آمِنٍ، عُدْنا إلى الملجأ لنَمكُثَ فيه يومًا آخر.

لاحَظتُ أنَّ الناس كانوا صامتين. فقط الأولاد كانوا يَصرُخون أو يبكون. وسَمِعتُ صوتًا يرتفع قائلًا:

– بدأوا يَقصفونَنا من الجوّ.

وردَّ عليه صوتٌ آخر:

– ومن البحرِ أيضًا. هذه الانفجاراتُ الأخيرةُ آتيةٌ من البحر.

وقالَت امرأة كانت تَجلِسُ في الزاوية، مُكَوَّمَةً على نفسها:

– ما الفرقُ، بين القصفِ الجوِّي، والبحري؟... إنَّه قَصْف. إنَّهُ يوقعُ الدَمارَ ويَقتلُ الأبرياء. إنَّهم يُحرِقون بيروت.

وردَّ عليها صَوْتُ امرأةٍ أخرى:

– يُحرقونَ الأخضرَ واليابس. إنَّها الحَربُ، لا تَرحَم.

وما كادت المرأةُ تقولُ ذلك حتّى سَمِعنا انفجارًا عنيفًا، هَزَّ البناءَ من أعلاهُ إلى أسفله. واشتدَّ صُراخُ الأطفالِ من شدَّةِ الخوف. ومعه صراخُ الأمَّهاتِ، في محاولاتٍ فاشلةٍ لإسكاتِهم.

وسَمِعتُ صوتًا يقول:

– سوف نموتُ هنا، تَحتَ الرَّدْم.

فتصدّى له آخر، مُؤنِّبًا:

– لا نحتاجُ إلى مثلِ هذا الكلام. لا يَنقُصُنا التَخويف. مَنْ كان عنده كلمةٌ تُشَجِّع فلْيَقُلْها، وإلّا فَالزموا الصَمْت.

– بوووم...

انفجارٌ جديدٌ أقوى من سابقِهِ أَخْرَسَ الجميع. حتّى الأطفال صمتوا صَمْتَ الخوفِ الأقوى من الصُراخ.

وبين انفجارٍ وآخر، كنّا نَسْمَعُ صَفَّاراتِ الإنذارِ تُطلِقُها سياراتُ الإسعافِ، وهي تَنقُلُ الجرحى والقتلى. وكان ذلك يُعلِمُنا بأنَّ عَدَدًا كبيرًا من الضَحايا يَتَساقَطُ في كلِّ مكان.

الخطَّة

منى اليومَ حزينة.

صديقتي على غيرِ عادَتِها، لا تَتَكلَّمُ ولا تَغمُرُني بِعَطْف. وهي تبكي. وكانت يداها تَرتَعِشان. لماذا تبكي منى؟... لماذا؟

– مياوو... مياووو...؟

حاوَلتُ أن أسأَلَها بِلُغَتي التي تَفهَمُها، فراحَت تُرَبِّتُ ظَهري، وتُقَرِّبُني من صَدرِها، من دون أن تَقولَ كلمة: – مياوو؟...

أَعَدْتُ السُؤال. فلم تَرُدَّ. لكنّي سَمِعتُ أُمَّها تُنادي من الخارِج: – أسرِعي، يا منى، كلُّنا مُسْتَعِدّون للخروج، أبوك يَنتَظِرُنا في السيارة. علينا أن نَخرُجَ قبل أن يبدأَ القصفُ من جديد.

– آخُذُ زيكو معي، قالت منى، فاعترضَتِ الوالدة: – سوفَ نلجأُ إلى بيتِ أصدقاءٍ وليسَ هناك مكانٌ لزيكو...

– لكنّي لن أترُكَه وحدَه في البيت، أَصَرَّت منى. فأكَّدَت لها أمُّها أنَّها أَوصَت بي أبو ناجي، وكيل العمارة: – لقد سَلَّمتُهُ مفتاحَ البيت، ومؤونَةً تكفي لمدَّة شهر.

وقاطَعَتها:

– لا أُفكِّرُ في الطعام، بل في سلامة زيكو. ماذا لو استَمَرَّ القصفُ وبقينا بعيدينَ عن البيت؟

– هذا ليسَ وَقتَ الدَّلَع. لن نَحمِلَه إلى بيتٍ ليسَ بَيتَنا، ثمَّ نحن لا نَدري أين سنكون. الأفضلُ لزيكو أن يبقى في البيت، وهو ذكيٌّ يَعرِفُ كيف وأين يَختَبِئُ،

لا تخافي عليه.

– سوفَ أبقى معه. لن أَترُكَه وحدَه.

أَصَرَّت منى وهي تَشُدُّ على جسمي بذراعَيها، وكأنَّها تُريد أن تَحمِيَني: – لن أَخرُجَ بدونه، أبدًا.

كنت أُصغي إلى الحديث، وأُخَطِّطُ لِعَمَلِ شيءٍ يُنقِذُ المَوقِف. لكنّي فوجِئتُ بوالِدَةِ منى تُغَيِّر موقِفها وتقولُ باستِسلام: – طيِّبْ، احمليه وتعالَي. وكانت منى تَحمِلُني، ولمّا سَمِعَت كلامَ أمِّها، غادَرَتِ البيتَ، وأَسْرَعَت لتَهبِطَ السلَّم، وعندها فَكَّرتُ في تنفيذ الخُطَّةِ، فَرُحتُ أُغرِزُ أنيابي الحادَّةَ في زندَيها، بلطفٍ أوَّلًا، ثمَّ بقوَّةٍ أكثر، حتّى أَجبَرتُها على أن تُفلِتَني، وما كادَت تَفعَلُ، حتّى هرعتُ عائدًا إلى البيت.

لَحِقَت بي، وحَمَلَتني، مُحاوِلَةً الخروجَ بي من جديد. وفي هذه المَرَّةِ لم أكتفِ بالأنياب، بل رُحتُ أَفحُّ في وجهها، مثلَ أفعى، حتّى خافَت وتراخَت يداها حول جسمي. فَقَفَزتُ، وهَرَبتُ منها، ثمَّ لَجأتُ إلى رُكنٍ في إحدى الخزائنِ لا تستطيع بلوغَه: – مجنون؟ ماذا دهاكَ يا زيكو؟ من أينَ جِئتَ بهذه الشراسَةِ، يا مجنون!...

كانت تُعاتِبُني، وتُؤنِّبني، وصوتُ أمِّها يُناديها، لتُسرِع، فَخَرَجَت مُرْغَمَةً، وهي تُتمتم: – لن تبقى هنا طويلًا. سوفَ أعودُ قريبًا وآخذُك، الوداع يا صديقي.

– مياوو...

نَجَحَت حيلتي.

غادَرَت منى بِصُحْبَةِ والدَيها وإخوتِها، وكُنتُ أُراقِبُهُم من رُكني، حزينًا لفراقِهم، وفرحًا لأنَّ حيلتي نَجَحَت، وحَرَّرتُ العائلةَ منّي، حتّى لا أُعَرقِلَ تَحرُّكَهُم في هذا الوقتِ الصعب.

الصمت المُريب

الهدوء. هُدوءٌ غريبٌ ينتشرُ حولي من بَعدِ خُروجهم. لا شيء يَتَحَرَّكُ، ويبدو أنَّ القَصْفَ توقَّف. وفَرِحتُ لذلك، حتّى لا تتعرَّضَ منى وعائلتُها للخطرِ في طريق خُروجهم.

لجَأتُ إلى سريري ونِمتُ لوقتٍ طويل. كنتُ أحتاج إلى تلك الراحةِ وذلك الخلود لنفسي. لكنَّ الشعور بالحزن بَقِيَ يُرافِقُني: فأنا لم أعِشْ يومًا بعيدًا عن منى وعائلتِها وأصدقائِها، فكيفَ سأمضي الوقتَ بعيدًا عنهم؟

أَيقَظَني من تأمُّلاتي صُراخُ أولادٍ في الشارعِ القريب، فَهَرَعتُ إلى النافذةِ لأرى ماذا يجري في الخارج، وفَرِحتُ كثيرًا حين رأيتُ أولادًا صغارًا غُرَباءَ عن الحَيِّ، يَشبُكُونَ أَيديَهُم، ويُؤَلِّفونَ حَلَقَةَ رقص. نعم. كانوا يَرقُصُونَ في فُسحَةٍ إلى جانِبِ الطريق.

لقد مضى وقتٌ طويلٌ على غيابِ الأطفالِ وصَرخاتِهم في أرجاءِ الحيِّ. وها هُم يعودون. فهل يعني ذلك أنَّ السلامَ آتٍ؟... ولكن لدى نظرةٍ تاليةٍ إليهم لاحَظتُ أنَّهم غرباء، وليسوا من سكّانِ العماراتِ الشاهقةِ في هذا الحيِّ من بيروت، فمِن أَينَ جاؤوا؟ ومن هُم يا ترى؟

وهل أنَّ حُضورَهم يعني عَودَةَ منى قريبًا إلى البيت؟

ليتَها كانت هنا، لأسألَها وتجيبَني عن كلِّ شيء.

كُنتُ سابحًا في بحر تأمُّلاتي وأفكاري حين سَمِعتُ صريرَ المِفتاحِ، وشعرتُ بأنَّ أحدَهُم يُحاولُ فَتحَ الباب. وتأكَّدَ لي ذلك حين أبصرتُ أبو ناجي يدخل، حاملًا علبةَ لحمٍ، فَتَحَها أمامي، ودعاني إلى تناولِ طعامي:

– أنا، وأنت، وَحدَنا في العمارة، يا زيكو... تعالَ كُلْ، حتّى لا تموتَ من الجوع.

وكنتُ أتوقَّعُ إطلالَة وجهِها، صديقتي منى. وحين أَقفَلَ أبو ناجي البابَ وخَرَجَ، شَعَرتُ بحزنٍ عظيم، أفقدني الشهيةَ إلى الطعامِ والشراب. لكنْ عليَّ أن أستجيبَ لأوامرِ الرجل، فأتناولَ الطعامَ حتّى لا أموتَ جوعًا. وكانت صرخاتُ الأولادِ الراقصين تأتي عَبرَ النافذة، وتُؤكِّد لي أنَّ الحربَ، والقَصْفَ، وكلَّ الكوارِث، تبقى عاجزةً عن إخراسِ ضَحِكِ الأطفالِ وإطفاءِ مَرَحِهِم.

أطفال لاجئون

– من هُم هؤلاء الأطفال؟ ومن أين جاؤوا؟

سَمِعْتُ أَحَدَهُم يسألُ رفيقَه في الشارع. وأجابه قائلًا: – إنَّهم غُرباءُ عن الحيِّ. أحضَرُوهم من أحيائِهم، حيثُ يَشْتَدُّ القَصْف. وهم الآن لاجئون في البناءِ المقابل.

لاجِئون؟...

ماذا تعني الكلمة؟...

رُحتُ أتأمَّلُهُم، لعلّي أفهَمُ معنى الكلامِ الذي سَمِعتُه. كانوا يَرتَدُونَ ثيابًا قَذِرَة، ولم يَغسِلوا وجوهَهُم، ولا سرَّحوا شَعرَهُم، ومعظَمُهُم كانوا حُفَاةً، بِلا أَحذِية. ولكنَّهم كانوا مَرِحين، يَلعبون، ويَضحكون. وكانوا يصنعون حلقاتٍ متجاورةً، ويرقُصون.

وما همَّ، إن كانوا يُسَمُّونَهُم لاجئين... فَهُمُ، بقدومِهِم، جَلَبوا مَعَهُم الحَرَكَةَ والمرحَ إلى الشارعِ الحزين.

إفتحِ الباب وإلّا...

كانَت تلكَ الليلةُ هادئةً، لا قَصْفَ ولا قَنابلَ أو رصاص. كذلك لم أَعُدْ أسمعُ السيارات التي تَنقُلُ الجرحى. وكان الظلامُ يُخَيِّم على كلِّ مَا حَولي بسببِ انقطاعِ الكهرباء. والمنزلُ يَسبَحُ في العَتمَة؛ لكنَّ أصواتَ الأولادِ الصغارِ ظلَّت تَجيءُ من خلالِ النافذةِ المفتوحة، وحتّى ساعةٍ متأخِّرةٍ من الليل.

جَلَستُ على حافَّةِ الشبّاك، أتأمَّلُ الشارعَ المُظلِمَ، وأتنسَّمُ الهواءَ اللطيفَ، يَهُبُّ من جهةِ البحر، وأُصغي إلى الأصواتِ داخلَ العمارةِ المقابلة، وكانت تَرتَفِعُ وتنخفضُ، حتّى تلاشَت نهائيًّا، فقدَّرتُ أنَّ الأولادَ قد ناموا. فتَسَلَّلتُ إلى الداخلِ، وذهبتُ إلى السرير، وأنا مُنهَكٌ من النعاس. وما كِدْتُ أُغمِضُ عَيْنَيَّ حتّى سَمِعتُ ضجيجًا قويًّا عند مَدخَلِ العمارة. قَفَزتُ إلى النافذةِ، لأرى ماذا يجري في هذه الليلة الظلماء، فأبصَرتُ شاحنةً مُحَمَّلَةً بالرجالِ المُسَلَّحين. كانوا قرابَةَ عشرةَ أشخاصٍ، وكلُّ واحدٍ يَحمِل بُندُقيَّةً يُسمّونها «كْلاشينكوف» وكانوا متشابهين في اللباس، يَرتدون الثيابَ المُرَقَّطة، وقد تَمَكَّنتُ من تمييزِ ذلك كلِّه على النورِ المنبعثِ من مصباحِ السيارة: – إفْتَحْ...

وراحوا يَخْبطونَ الباب الخارجي ويَصْرُخون: – إفْتَحْ، وإلّا خَلَعْنا الباب.

وسمِعْتُ صوتَ أبو ناجي يسألُهُم جَزِعًا: – ماذا تريدون؟... ليس هناكَ أحد. العمارةُ خاليةٌ من الناس.

– إفتَحْ، وإلّا نُطلقِ النارَ ونُحَطِّمُ الأقفال. ولم يكن في وسْعِ الحارس سوى الإذعانِ لأوامِرِهم، فراح يَفْتَحُ الأقفال. وسَمِعتُهُ يَسحَبُ المِزْلاج، فَيَختَلِطُ صدى

ارتطامِ الحديد، بأصواتِ أولئك الرجال. وأخيرًا سَمِعْتُ البابَ يُفتَحُ ودخلوا: – نُريدُ الضابط... الضابط حسّان، أين هو؟... في أيِّ طابقٍ مَسكَنُه.

– ولكن ليسَ عندَنا ضابطٌ، ولا أعرِفُ هذا الاسم.

كان أبو ناجي يردُّ بِصَوتٍ راجِفٍ، لكنَّهم لم يُصدِّقوه.

– كذّاب... إنك تَكْذِب.

إصْعَدْ أمامنا، ودُلّنا على بيته.

– أنا لا أكْذِب. هذه الحقيقة، وإذا شِئْتُم، تَفَضَّلوا وتأكّدوا بأَنْفُسِكُمْ...

– سِرْ أمامَنا...

وسَمِعتُهُم يَصعَدون السلَّمَ، إلى الطوابقِ العليا. وكان وَقْعُ أحذيتِهِم الثقيلةِ يزيدُني خوفًا؛ ماذا لو دَخَلوا؟... ليس هناك من يَحميني. لكنَّ خوفي تلاشى حين سَمِعتُهُم يَتَجاوزون الدورَ الأوَّل، حيثُ أنا، ويُتابعونَ صُعُودَهم. ثمَّ سَمِعتُ إطلاقَ نارٍ... يا إلهي!... ماذا يفعلون؟

كنتُ خائفًا على الحارِسِ أكثرَ من خوفي على نفسي. هذا الرجلُ الطَيِّبُ، لا يؤذي نَمْلَة... لكنّي لم ألبَثْ أن سَمِعتُ صوتَهُ، يَتَحَدَّثُ إليهم، وهُم يهبِطونَ السُلَّم، ويَقذِفونَ غَضَبَهم وشتائِمَهم. وأدركت أنَّهم ربَّما أطلقوا النارَ إرهابًا، أو ليُحَطِّموا قُفلَ الباب، وحين لم يعثروا على أحد، رَجعوا خائبين. وبقي ضجيجُهُم في أذنيَّ حتّى سَمِعتُ مُحَرِّكَ السيارةِ، ثمَّ صَدى إقفال البابِ الحديد، وهذا يَعني أنَّهم انصرفوا وأبو ناجي في أمان. شَعَرتُ بالراحة، فَلَجَأتُ من جديدٍ إلى سريري، محاولًا أن أنسى هذا الحَدَثَ الذي أثارَ خوفي.

الوَلدُ الشرّير

طَلَعَ الصباح.

يومٌ آخر، يُطِلُّ، من دون أن تعودَ صديقتي منى.

نهضتُ على صرخاتِ الأولادِ في الشارع. كانوا يَلعبون، ويَضحكون. فجلَستُ على حافّةِ الشبّاك، أتأمَّلُهُم، وأفرَحُ لِفَرَحِهِم. لاحَظتُ أنَّهم يرتدون ثيابَ الأمسِ، وقدِ ازدادَت اتِّساخًا، كما بدا شَعرُهم أكثرَ تَشَعُّثًا وفوضى. وبقيَت وجوهُهُم الحلوة مُنَوَّرةً بالضحكِ والمرحِ برغم ذلك كلِّه. وقد جاؤوا بسلوكِهِم المُختَلِفِ عن سلوك منى وأصدقائِها من أبناءِ الحيِّ، والذين لم أُبصِرهُم مرَّةً يلعبون في الشارع. أمّا هؤلاء الأولادُ فلا يَهُمُّهم أينَ يلعبون.

تَمَنَّيتُ لو أَهبِطُ إلى الشارعِ وأشارِكُهُم أَلعابَهُم. كنتُ وحيدًا، وحزينًا. لكنَّ الخروجَ مُستَحيلٌ، ولن أستطيعَ القفزَ من النافذة؛ وحتّى لو فَعَلتُ، فكيفَ أَرجِعُ إلى البيت؟... وأنا لا أنوي أن أُصبِحَ قطًّا مشرَّدًا... لا، سوفَ أكتفي بمراقبتِهِم، ومُشاركَتِهِم المَرَحَ من بعيد. وربما شعروا هُم بوُجودي فوقَ تلك الشرفة، فأشارَ إليَّ أحدُهُم وهو ينادي أصحابَه: – أنظروا، القِطُّ المدلَّل، يُراقِبُنا من بُرْجِهِ العالي.

– إنزلْ والعبْ معنا...

صوتٌ آخر، يَدعوني، مُمازحًا. وسمعتُ ثالثًا يقول: – تعالَوا نُرَكِّزْ عليه، لنرى إذا كنّا نُصيبُه... هيّا، اجمعوا الحصى.

فَنَهَرَهُ صوتٌ قويٌ، وأخرسَه:

– عيب عليك، تُفَكِّر بالشرِّ.

وتَبِعَهُ صوتُ فتاة:

– حرام... هو لا يؤذينا، حرام نضربه.

– فعادَ الولدُ الشرّيرُ يرفعُ صوتَه، ويَدُهُ تتَّجه صوبي بالحجر: – روحي، إنتِ بنت، ما بْتِفْهمي.

وَقَبْلَ أَن يُفلِتَ الحَجَرَ من يَدِهِ، كنتُ قد قَفَزتُ من مكاني على الشُرفَة، وهَرَعتُ إلى الداخل، حيث لا يراني، ولا يُصيبُني أذاه. وسمِعتُ قَهْقَهَةً تأتي من الشارع، وكانت قهقهةَ رفاقِهِ وهم يَسخَرون منه: – طَلَع البِسْ أَشْطَر منك. بْتِسْتاهل...

لكنَّ الحَجَرَ الذي أَخْطَأني أصابَ زُجاجَ النافذةِ فتحطَّمَ وسَقَطَتِ الشظايا في كلِّ صَوْب.

تلك الحادثةُ أنهَت جلساتي التأمُّلية، إذ خَشِيتُ أن يُعاوِدَ ذلك الولدُ الكَرَّةَ، ولا أكونَ محظوظًا فأنجو من إصابَتِهِ مثلما نَجَوتُ اليوم.

الملجأُ الأخير

لم تَطُلْ فترةُ الهدنةِ والسلام. فقد عادَ القَصْفُ شديدًا في الليلةِ التالية. وكنتُ أسمَعُ القذائفَ وهي تَتَفَجَّرُ بقربي، وبعيدًا عن البيت، وفي كلِّ مكان. ولم أَجِدْ أفْضَلَ من اللجوءِ إلى سريري الآمن أحتمي به. لكنَّ سقوطَ قذيفةٍ فوقَ الشرفةِ جَعَلَني أهجُرُ السريرَ، وألجأُ إلى خزانةِ الثيابِ في غرفةِ النومِ الكبرى. وكُنتُ، من مخبأي، ألمحُ شُعاعاتِ النورِ وهي تلمعُ في الفضاء المُظلِمِ، تُنذِرُ بالمزيدِ من الانفجارات. وكنتُ، بين الحين والآخر، أسمعُ صُراخَ الناس، الكبارِ والصغارِ، يأتي من البنايةِ المقابلة، والتي تُؤوي أولئكَ الأطفالَ اللاجئين. وفَكَّرتُ كم تبعدُ المسافَةُ التي تَفصِلُ ذلك النهارَ، عن الليلةِ التي تلَتهُ. وأين هُمُ الصغارُ الأشقياء، يملأون الشارعَ مرحًا؟... أين يَختَبِئون؟ وهل هناك ملجأ أمين؟ حتّى ذلك الولد الذي حاولَ الاعتداءَ عليَّ، لم يَغْرُبْ عن بالي، وسامَحتُهُ على كلِّ ما فَعَلَ. وكان يُخَفِّفُ حُزني وقَلقي تفكيري بأنَّ صديقتي منى بعيدةٌ عن هذه الجحيم ونيرانها.

***

لم أُصَدِّقْ متى طَلَعَ فَجْرُ اليومِ التالي؛ فقد ظَلَّتِ القنابلُ تَنهَمِرُ على الأحياءِ والمساكنِ طوالَ الليل. وارتفعت حرارةُ الجوِّ بسببِ حرائقَ اشتعلت في أكثرَ من جهة. وتسَرَّبَ الدخانُ إلى خياشيمي، فأدرَكتُ أنَّ الحَريقَ ليس بعيدًا عنّا. هَرَعتُ إلى النافذة، لأتنشّقَ نسمَاتِ الهواء النقيِّ، ففوجئتُ بأنَّ الدخانَ يأتي من جهةِ الشارعِ، كما من سائرِ الجهات، أين المَفَرّ؟...

انتَظَرتُ أن يأتي أبو ناجي كعادتِهِ كلَّ صَباح، يتفقَّدُني. وحَسِبتُه نائمًا، ربما بسبب قلقِه خلال الليل. أخيرًا قرَّرتُ أن أصبِرَ وأنتظِر، وكان الجوعُ المختلِطُ بالخوفِ والنعاسِ يوهنُ جسمي، فلا أعودُ أشعُرُ بالنشاط، ولا بأيَّةِ رغبةٍ في الحَرَكَة. أخيرًا قَرَّرتُ أن أهرُبَ من ذلك كلِّه إلى النوم.

***

فلستُ أدري متى صَحَوْتُ على دويِّ انفجارٍ هزَّ أركانَ الغُرفَةِ، وشَعَرتُ باللهبة تكادُ تلامِسُ جسمي.

كنت لا أزال مُختَبِئًا في الخزانةِ الداخلية، لكنَّ حرارةَ اللهبِ سرعانَ ما أخَذَت تنتشرُ لتبلُغَ كلَّ زاويةٍ في البيت.

غادَرتُ مخبأي بسرعةٍ، إلى الشُّرفَةِ، النافذةِ الوحيدةِ على الخارج، وعلى الفضاءِ والهواءِ؛ ولكن ما كِدتُ أجتازُ الممشى الضَيِّقَ الذي يقودُ إلى هناك، حتّى دوّى ذلك الانفِجارُ الرهيب. ولم يَكُن في الخارج، بل في قلبِ غُرفَةِ النوم، وكأنَّه داخلَ أحشائي. وسَمِعتُ، هذه المرّةَ التفجُّرَ داخل قلبي. لا في الخارج.

إنْدَفَعتُ إلى الأمامِ بقوَّةٍ خارجةٍ عن كياني، باتِّجاه النافذةِ الوحيدة التي لم تتسرَّب إليها النيران. صعدتُ إلى مقعدي المُفَضَّلِ، المُواجِهِ للشارعِ العريض، ثمَّ قَفَزتُ إلى الشارع وهَرَبت.

بقيَّة الحكاية

أنا والدةُ منى وسوف أروي عنكَ بقيّةَ الحكايةِ يا زيكو. نعم، لم تَكُنْ بقربِكَ في تلك اللحظة الرهيبة. ومن موقِعِنا، فوقَ تلّةٍ مُشرِفَةٍ على بيروت، كنّا نراقِبُ نيرانَ الحرائقِ، وهي تُزَنِّرُ المدينة، ونُصغي إلى أصداءِ القَصْفِ الذي لا يَرحَمُ. وكان اليومَ الأوَّلَ من شهر آب سنة 1982، وهو مُسَجَّلٌ بأحرفٍ من نارٍ في تاريخِ عائلتِنا. يومَ احترقَ البيتُ الذي ضَمَّ الأُسْرَةَ طوال رُبعِ قَرْن.

وكان ذلك من أيّامِ الرُعبِ التي لن تَنساها بيروت، وأهلُها.

ويا زيكو:

لماذا نَهَضتُ باكرًا فَجْرَ ذلك اليوم؟... كانتِ الساعة تقارِبُ الثالثةَ صباحًا، وكان الجميعُ غارقينَ في النومِ عندما نَهَضتُ، وتَسَلَّلتُ إلى الشُرفَةِ المطلَّةِ على العاصمَةِ والبحر. وأَبصَرتُ عِقدَ اللهبِ يُطَوِّقُ عُنُقَ بيروت. وقَفتُ هناك، أُصغي إلى أصداءِ الانفجاراتِ تأتي من كلِّ صوبٍ. وكنتُ أتساءل:

– ماذا جرى لكَ؟... وهل أنتَ في أمانٍ أمْ...

ولا ضرورةَ لأخْبِرَك، يا زيكو، عن الحُزنِ الذي صَدَمَنا، حين اتَّصلوا بنا من بيروت ليُخبرُونا بأنَّ دارَنا احتَرَقَت، وأنتَ؟...

وكان علينا أن ننتظرَ طلوعَ الفَجرِ، وإذنًا لعُبورِ خُطوطِ النار، حتّى نَصِلَ إليك.

***

ولكن، يا للأسَف!

لم تكنْ هُناك بانتظارِنا، مثلما كنّا نَأمَلُ ونَتَمَنَّى. بحثنا عنك داخِلَ البناية، وفي كلِّ زاوية لم تصلها النار. وَعَبَثًا بَحَثنا. سألنا الناسَ في الشارِع، والمارَّةَ الغُرَباءَ

عن الحيِّ، لكنَّ أحدًا لم يُعطِنا الجوابَ الشافي. وقدَّرنا أنَّك رُبَّما هَرَبتَ. ربَّما قَفَزتَ من تلك النافذة الوحيدة المُطِلَّة على الخارج.

لكنَّنا فَقَدناك. وبَعدَما رجَعنا لنُعيدَ بناء البَيت، كنّا نتوقَّعُ عَودَتَك في كلِّ يومٍ. لكنَّكَ لم ترجِعْ.

ولم يكن في وسْعِنا أن نؤكِّدَ مصيرَكَ، وماذا حلَّ بكَ.

واعتَبَرناك ضحيَّةً بَريئَةً من ضحايا الحَرب: مِثْلُك مثلُ شيوخ وأطفالٍ قُتِلوا، أو خُطِفوا، أو هُجِّروا مِن بُيوتِهم ومِن قُرَاهُم.

والآن، وفيما أُسَجِّلُ هذه الذكرياتِ عَنكَ، يا زيكو، في زمن السَلامِ بَعدَ الحَربِ، أَتَلَفَّتُ، من حينٍ لآخرَ، عَبرَ النافِذَة صَوبَ الحديقةِ المجاورة، وأتأمَّلُ شَجَرَةَ «اللَّيْلَكْ» وارفةَ الظِّلالِ، وقد كَبُرَت في غِيابِك.

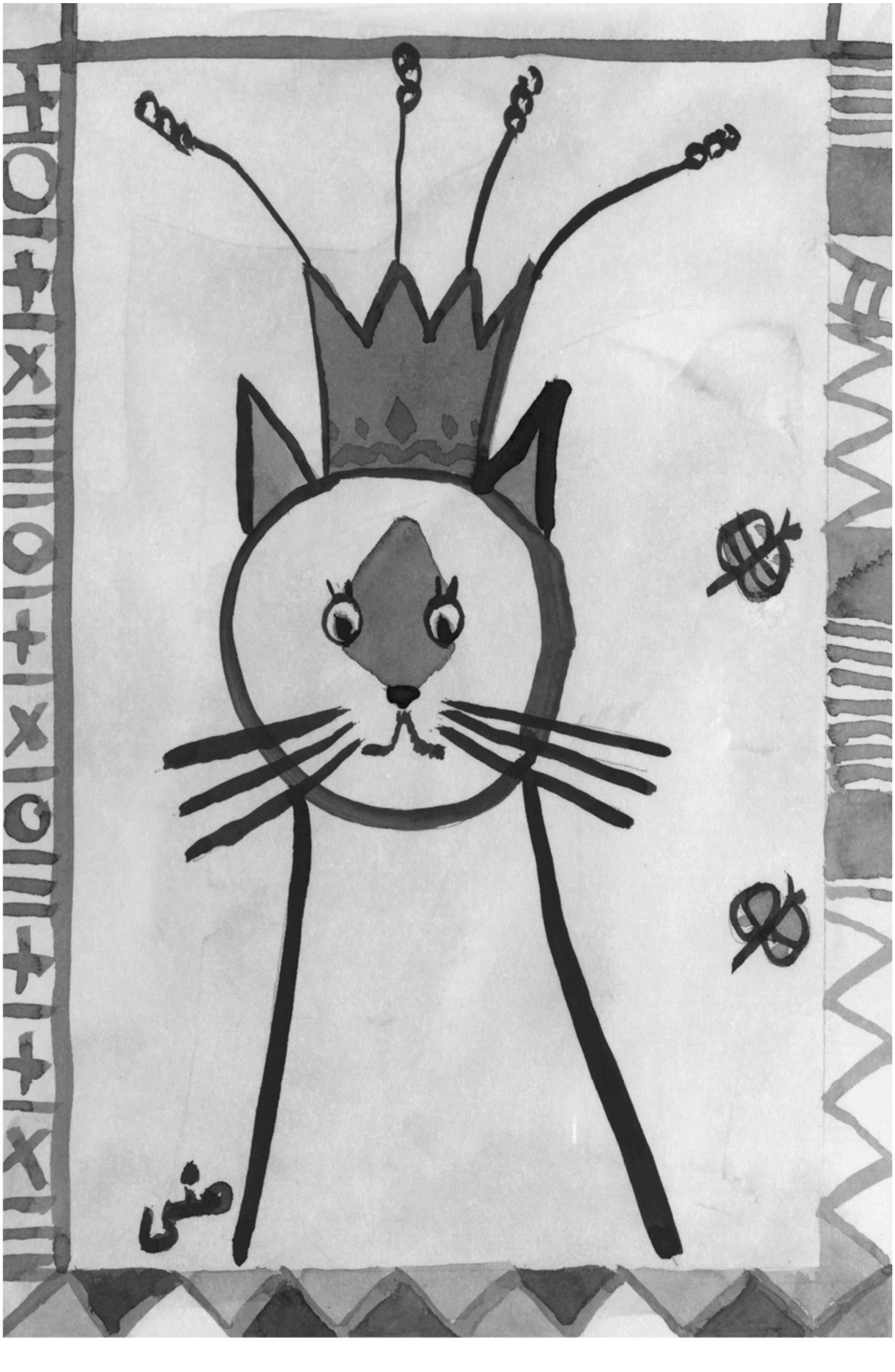
منى

و

أحيانًا أَبصِرُ فوق غُصونِها أسرابًا من عَصافيرِ الدُّوري، تَمرَحُ، وتُزَقزِقُ، غَيرَ مُبَالِيَةٍ، ويُخَيَّلُ إليَّ، في بعضِ الأحيان، أنّي أُبصِرُ هرًّا سيَاميًّا جميلًا يُحاوِلُ اختِلاسَ سَبيلِهِ إليها.

شهادة منى

إنتَظَرتُ عَودَتَهُم بقلقٍ. كانت أمّي حازِمةً في رَدِّها: – لن تَذهَبي إلى بيروت. القذائفُ تَتَساقَطُ من كلِّ صَوب. قالت ذلك وانطَلَقَت مع أبي باتِّجاهِ بيروت.

كان حزنٌ كبيرٌ يَغمُرُ كياني، وانتظرتُ عودَتَهم بفارغ الصَبرِ، ولمّا أطَلَّتِ السيارةُ من بعيدٍ، هَرَعتُ أَسْتَقْبِلُها وأسألُ عنك: – صديقي زيكو؟... ماذا جرى له؟

ولم يُجيبوني.

أمّي تَظَاهَرَت بالصَّمَم، وأدارَ أبي وجهَهُ وهو يتجاوزُ مكاني، تَبِعتُهُ وأنا أُكَرِّرُ السؤال: – زيكو... زيكو... ماذا جرى لِزيك؟

رفع أبي نَظَرَهُ إليَّ، فقرأتُ الجوابَ في عَينَيهِ، ثمَّ سَمِعتُ التأكيدَ مُختَصَرًا بكلمتَين: – زيكو هرب.

قال ذلك، وغَمَرَني بذراعَيه. واقتربَت أمّي، تُحاولُ أن تَغمُرَني وتُؤاسيَني، فَدَفَعتُها، ورُحتُ أَركُضُ بين الصخورِ وأشجارِ الغابةِ القريبة، وأنا أبكي وأُردِّدُ كلمةً واحدة: – لا... لا أُصَدِّق.

تَبِعَني أبي إلى حَيثُ وجدَني جالِسَةً فوقَ صَخرَةٍ، وقد عَقَلَتِ الصدمةُ لساني، وشلَّت دماغي. أمسَكَني بيدي ودعاني لأسيرَ معه، وفي طريقِ العَودَةِ، كان يُحاولُ أن يغرِسَ حقيقةَ ما جرى في وعيي: – لو كنّا في البيت، لما نجَونا. أمّا هو فكان قادرًا على القَفز من النافذة. وأظُنُّ هذا ما فعَلَه زيكو.

لم أَفهَم معنى كلماتِهِ. وكُنتُ، في تلك اللحظةِ، أتوق إلى شيءٍ واحد: أن أهرُبَ من أبي، وأمّي، ومن الناس كلِّهم. وأهربَ من نفسي، ومن الحَرب.

لقد كانتِ الحربُ، قبل هذا التاريخ، مَشهَدًا في فيلمٍ سينمائيٍ أو خبرًا أُشاهِدُهُ في التلفزيون، أمّا اليومَ فقد أَصبَحَت جُرحًا بليغًا في أعماقِ الذاكرة.